إبداع
العدد ١٨ • ربيع ٢٠١١
مجلة فصلية للأدب والفن

أحلام أينشتاين

ألَن لايتمان

ترجمة
على القاسمى



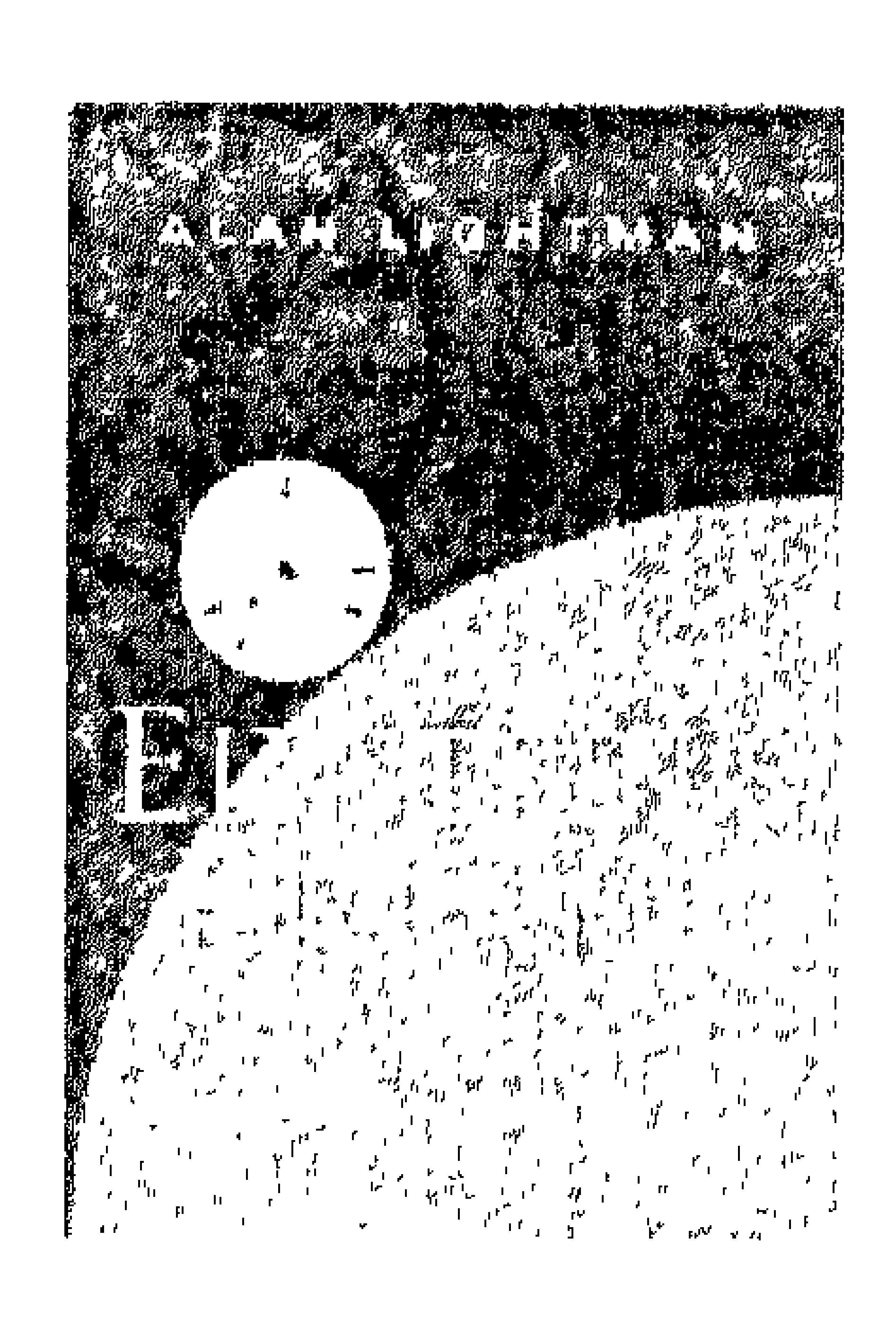
العدد ١٨ • ربيع ٢٠١١

مجلة فصلية للأدب والفن

أحلام أينشتاين

ألَن لايتمان

ترجمة: على القاسمى



تصدير:
هذا الكتيب ومترجمه

يجمع هذا الكتيب بين حقائق العلم كما تكشفها لنا عقول العلماء، وجمال الفن كما يصوره لنا خيال الشعراء؛ فهو علم من جهة موضوعه، وهو شعر من جهة صياغته وبنائه الفنى، أو إن شئت قل هو رواية صغيرة لكنها فاتنة بجمال أسلوبها ورشاقة لغتها وحيوية صورها. وهذا اللون من التأليف معروف فى الغرب منذ تحمس له بعض العلماء المتأدبين الموهوبين، ممن أخذوا على عاتقهم تبسيط العلوم الطبيعية لغير المتخصصين وتقريبها إليهم.

ومؤلف الكتيب، هو العالم الأمريكى «آلَن لايتمان Alan Lightman» الذى يقوم بتدريس الفيزياء لا يزال فى أشهر الجامعات والمعاهد العلمية الأمريكية، دون أن يشغله العلم عن كتابة المقالات المتنوعة، ولا عن الإبداع الأدبى بين الشعر والقصة؛ فهو مؤهل تماما لتلك المهمة التى اضطلع بها فى هذا الكتيب، وهى تبسيط نظرية «أينشتاين» فى النسبية، لا سيما ما يتعلق منها بفكرة (الزمكان) أو الزمان المكانى ذى الأبعاد الثلاثة؛ فمن كان يطلب الحقيقة العلمية حول هذا الموضوع العلمى المعقد، بوسعه أن يستشفها، أما من كان يطلب الجمال الفنى، فله أن يتذوقه ويستمتع به. وقد وقع على ضالته من كان ينشدهما معا.

يذكرنا «لايتمان» بسلفه العالم الروسى الأصل الذى هاجر إلى أمريكا: «جورج جاموف»، فقد ترجمت له فى مصر عدة كتب مهمة فى العلوم الطبيعية وقضاياها، وكانت له محاولات قبل «لايتمان» فى تبسيط العلوم بصيغة سردية مشوقة، وقد وقف المترجم فى مقدمته عند بعض هذه المحاولات،

مقارنا إياها بمحاولة «لايتمان»، التى نقلها إلى العربية بأسلوب رشيق ولغة حية. ولم يكن هذا بغريب على من كانت له خبرة الأديب والباحث العراقى الدكتور: «على القاسمى».

يعرف قراء [إبداع] «على القاسمى» من خلال كتاباته وقصصه المتميزة التى كانت تنشرها له المجلة فى إصدارها السابق خلال التسعينيات، وقد صدرت له حتى الآن ستة أعمال قصصية هى: (أوان الرحيل) و(حياة سابقة) و(دوائر الأحزان) و(عصفورة الأمير) و(صمت البحر) و(رسالة إلى حبيبتى).
أما عن كتبه الأخرى فى مجال البحث النقدى واللغوى، فقد تنوعت وجاء كثير منها ليسد فراغا ملحوظا فى المكتبة العربية، خاصة ما يدور حول قضايا اللغة والمعاجم المتخصصة، مثل (معجم الاستشهادات الموسع) و(معجم مصطلحات علم اللغة) و(المعجم العربى الأساسى) وغيرها. ويعمل «على القاسمى» الآن مستشارا لمكتب تنسيق التعليم فى الرباط بالمملكة المغربية، وهو عضو مراسل عن العراق لمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وكما عكف على تأليف هذا الكتيب عالم وأديب أمريكى، فقد توفر على ترجمته باحث وأديب عربى، فأبدع فى النقل كما أبدع صاحب الأصل.

ح. ط.

تقديم

هذا الكتاب وتبسيط العِلم بالأدب

كيف ترجمتُ هذا الكتاب؟

فى منتصف العام الماضى، كنتُ أطالع العدد المزدوج (الخامس والسادس) لشهرى مارس/ حزيران ٢٠١٠ من مجلة «Scientific American العلوم الأمريكية» فى طبعتها العربية الصادرة عن مؤسّسة الكويت للتقدُّم العلمى. لفتَ انتباهى المقالُ الافتتاحى وعنوانه «مغامرات فى الزمكان المنحنى» للعالِم البرازيلى أدوردو غيرون، الذى يتناول بعضَ أُسس النظرية النسبية لألبرت أينشتاين، ويقول عنها إنّه رغم مرور تسعين عاما على ظهورها فإنّها ما زالت مذهلة؛ فقد ثبتتْ صحّةُ مقولتها بأنَّ الزمان/ المكان المنحنى يسمح بنوع من الانزلاق. إذ يمكن لجسمٍ أن يسبح فى فضاءٍ منحنٍ خالٍ دون أن يدفعه شىء، وأن يُبطِئ هبوطه. ويشير المقال فى بدايته إلى أنَّ عالما اسمه جورج غاموف George Gamow، نشر كتابا عنوانه: «**مغامرات السيد تومبكنز**» أوائل الأربعينيّات من القرن العشرين، يبسِّط فيه النظرية النسبية بقصصٍ ممتعة.

فى الأسبوع ذاته، زارنى، فى الرباط، شاب أمريكى هو أريك نِكولز، كان زميلا لابنتى علياء فى مرحلة الدراسات العليا لعِلم الحاسوب فى جامعة إنديانا فى بلومنغتون، وتعاونا فى بحثٍ علمىٍّ عن استخدام الحاسوب فى اختيار الإصبع الملائم لعزف كلّ نوتة موسيقية على البيانو، وقدّما نتائجه فى مؤتمرٍ علمىٍّ عالمىٍّ انعقد فى فينا بالنمسا. وجلب لى هذا الشاب بعض الكتب هديةً، منها رواية Einstein's Dreams «**أحلام أينشتاين**» للدكتور ألَن لايتمان Alain Lightman التى تبسِّط النظرية النسبية لأينشتاين فى شكلٍ سردىٍّ بديع. استمتعتُ بقراءة الكتاب، وأعجبتنى قدرة مؤلِّفه على تبسيط كثير



من محاور النظرية النسبية، بشكلٍ روائىّ.

فى تلك الأثناء، وبمصادفةٍ عجيبة، أهدتْ إلىّ الشاعرة الأمريكية المعروفة الدكتورة مورين كرايسك Maureen Crisick كتابا عن حياة ألبرت أينشتاين، ألفّه كاتب سِيَر المشاهير والتر إيزاكسون W. Isaacson بعنوان:

«Einstien: His Life and Universe» .

والشاعرة كرايسك تقوم بتدريس الأدب الأمريكى فى إحدى الجامعات الأمريكية فصلا واحدا فى السنة، ثمّ تُمضى بقية شهور السنة فى المغرب للتفرُّغ لكتابة الشعر. وقد ساعدتْ مشكورةً فى مراجعة ترجمة بعض قصصى القصيرة إلى الإنكليزية التى يضطلع بها الصديق الدكتور موسى الحالول، أستاذ الترجمة فى جامعة الطائف.

فى هذا الكتاب «ألبرت أينشتاين» الذى يقع فى ٨٥٠ صفحة من القطع الكبير، يقول مؤلِّفه ما مضمونه أنّه لم يستطِع فهْم النظرية النسبية منذ نشرها وحصول صاحبها على جائزة نوبل حتى اليوم، سوى أفراد قلائل يُعدّون على رؤوس الأصابع.

ومن المصادفات العجيبة كذلك، أنّنى شاهدت فى تلك الأثناء شريطا سينمائيا عُرض على شاشة التليفزيون عن حياة أينشتاين، وعن دعمه لبحوثِ عددٍ من العلماء من أجْل اختراع القنبلة الذرية لفائدة الأمريكان قبيل الحرب العالمية الثانية وفى أثنائها، وهو الدعم الذى تنصّل منه أينشتاين بعد أن ألقى الأمريكان القنبلة الذرية على مدينة هيروشيما اليابانية، وقتلوا مئات الألوف من الناس المدنيِّين الأبرياء، ما يُعدُّ جريمةَ حرب وجريمةً ضد الإنسانية، فكتب مقالا يزعم فيه أنَّ مساهمته فى صنع القنبلة الذرية كانت محدودة.

فى الأسبوع التالى، وبمصادفةٍ أُخرى، شاهدتُ شريطا سينمائيا آخر على التليفزيون عنوانه: «العودة إلى المستقبل» ينبنى على نظرية أينشتاين للزمان.

شعرتُ أنّنى ينبغى أن أستثمر جميع هذه المصادفات فى عملٍ يرمى إلى تبسيط بعض محاور نظرية أينشتاين للقارئ العربى. وهكذا عزمتُ على ترجمة كتاب «**أحلام أينشتاين**».

ولكن كان علىّ، فى مرحلة الاستعداد لترجمة هذا الكتاب، أن أدرس سيرة أينشتاين، وأحاول فهم خلاصة نظريته الشهيرة، وأطّلع على كتاب «**مغامرات السيد تومبكنز**» للدكتور غاموف الذى سبق كتاب «**أحلام أينشتاين**» فى تبسيط النظرية النسبية، لأرى أىّ الكتابيْن أفضل، وما إذا كان الدكتور ألَن لايتمان مؤلِّف كتاب «**أحلام أينشتاين**» قد تأثّر بكتاب الدكتور غاموف، وما الجامع بينهما.

طلبتُ من ولدى، حيدر، فى الولايات المتحدة الأمريكية، أن يبعث إلىّ بكتاب الدكتور غاموف الذى لم أعثر عليه فى المغرب. فبعث إلىّ بكتاب «The New World of Mr. Tompkins» «**العالَم الجديد للسيد تومبكنز**»، وهو تحديثٌ لكتاب غاموف الأصلى، أنجزه الدكتور رُسل ستانارد، عدّل فيه بعض محتويات الكتاب فى ضوء ما استجد من نظرياتٍ فى علم الفيزياء، وأضاف بعض الفصول الضرورية. قرأتُ هذا الكتاب، ولكنّى رأيتُ أنّه لا يُغنى عن الاطّلاع على كتاب غاموف الأصلى. ولهذا رجوتُ ولدى حيدر أن يبحث فى (الشابكة- الإنترنت) عن محلات بيع الكتب القديمة، ويبعث به إلىّ، ففعل مشكورا. إضافةً إلى ذلك، قمتُ بمراجعة خرائط المدن السويسرية المذكورة فى كتاب الدكتور ألَن لايتمان، ومشاهدة صور شوارعها ومعالمها مرّةً أُخرى، فى الشابكة، لإنعاش ذاكرتى؛ فقد سبق أن زرتُ تلك المدن السويسرية التى تناولها الكتاب: بيرن، زوريخ، فرايبورغ، لوتسرن... إلخ، عدّة مرات فى أثناء مشاركاتى فى الاجتماعات السنوية للتعاون بين منظمة المؤتمر الإسلامى ومنظمة الأمم المتحدة، التى كانت تعقد فى مقرّ الأمم المتحدة فى مدينة جنيف.

تبسيط العِلم بالأدب:

يُعدّ الدكتور جاموف (١٩٠٤ـ١٩٦٨) وهو روسيٌّ هاجر إلى أمريكا، وتولى تدريس الفيزياء النظرية فى جامعة ولاية كولورادو فى مدينة بولدر؛ من ألمع علماء الفيزياء فى القرن العشرين، ومن واضعى نظرية «الانفجار العظيم» الخاصّة بتفسير نشوء المجموعة الشمسية، كما أنّه مِن أبرز مَن عمل على تبسيط العلم بالأدب.

يقول الدكتور جاموف فى مقدّمة كتابه «**مغامرات السيد تومبكنز**» إنّه كتب قصةً علميةً قصيرة (وليست قصة من قصص الخيال العلمى)، حاول أن يشرح فيها للقارئ العامِّ الأفكارَ الرئيسة فى نظرية انحناء الفضاء والكون المتّسع. وفيها يقوم بطل القصة السيد س.ج.هـ تومبكنز، وهو كاتبٌ فى بنكٍ، بمغامراتٍ فى الفضاء. وبعث بقصته القصيرة إلى مجلة هاربرز Harper's الأمريكية، ولكنّها رفضت نشرها، لأنّ الدكتور غاموف لم يكُن أديبا معروفا، وإنّما أستاذ الفيزياء النظرية فى جامعة كولورادو. ثم بعث غاموف بقصته القصيرة إلى ستّ مجلات أُخرى، بَيدَ أنّها جميعها رفضتها كذلك.

وفى صيف ذلك العام ١٩٣٨، التقى جاموف بصديقٍ قديم له هو تشارلس دارون، حفيد العالم البريطانى تشارلس دارون، صاحب نظرية «**أصل الأنواع**»، الذى حثّه على العمل معا لأجل تبسيط العلوم وإشاعتها. فأخبره جاموف بقصّة قصّته القصيرة التى لم تلقَ قبولا من أصحاب الدوريات. فطلبَ منه تشارلس دارون أن يبعث بتلك القصة القصيرة إلى الدكتور سى. بى. سنو Snow رئيس تحرير مجلّةٍ علمية اسمها «**الاكتشاف** Discovery» تصدرها مطبعة جامعة كمبريج فى بريطانيا. وعندما أرسل جاموف قصته القصيرة إلى الدكتور سنو، نشرها فى المجلّة، وطلبَ منه أن يبعث إليه بقصص أُخرى تبسّط المفاهيم العلمية بطريقة شائعة. وهكذا تجمّع للدكتور جاموف عددٌ من القصص

نشرتها المطبعة سنة ١٩٤٠ فى شكل كتابٍ عنوانه «**مغامرات السيد تومبكنز**»، وأتبعه سنة ١٩٤٤ بمجموعة قصصية أُخرى بعنوان «**السيد تومبكنز يستكشف الذرّة**» Mr. Tompkins Explores the Atom وقد تُرجِم الكتابان إلى عدد من اللغات الأوربية؛ ولم يُترجما إلى اللغة الروسية (ربّما فى إشارةٍ إلى عدم رضى السلطات السوفيتية عن هجرة علمائها إلى أمريكا).

فى سنة ١٩٦٥، قررت مطبعة جامعة كمبريج دمج الكتابيْن فى كتابٍ واحد مع تعديلات اقتضتها التطوُّرات العلمية وفصولٍ إضافية. وظلَّت كُتب الدكتور جاموف تسيطر على السوق حوالى نصف قرن فتصدر فى طبعات متتالية، والكتب المنافسة لها تأتى وتذهب. وفى عام ١٩٩٩، كلَّفت مطبعة جامعة كمبريج الأستاذ راسل ستانارد Russell Stannard (١٩٣١ ـ   ) بتحديث كتاب الدكتور جاموف فى ضوء النظريات الفيزيائية المستجدة. والأستاذ راسل ستانارد هو عالم بريطانى متقاعد متخصِّص فى فيزياء الجزيئات، وفى تبسيط العِلم للأطفال، فقد أصدر ثلاثية العم ألبرت السردية المكوَّنة من الكتب التالية: «**الزمان والمكان والعم ألبرت**»، و«**الحُفر السوداء والعم ألبرت**»، و«**العم ألبرت ونظرية الكم**»، وهى كُتُبٌ ترمى إلى تبسيط نظرية أينشتاين النسبية ونظرية الكمِّ للأطفال الذين تزيد أعمارهم على أحدَ عشرَ عاما. وقد تُرجِمت هذه الكتب إلى خمسَ عشرةَ لغةً من لغات العالم. ونتيجة لعمل الأستاذ ستانارد فى تحديث كتاب غاموف المزدوج، أصدرت مطبعة جامعة كمبريج كتاب «**العالم الجديد للسيد تومبكنز**» سنة ١٩٩٣، الذى تُعاد طباعته حاليا كلَّ عام.

يعتمد غاموف فى تبسيط النظرية النسبية لأينشتاين على كتابة قصص قصيرة عن شخصٍ حالم يُدعى السيد «س. ج. هـ تومبكنز» يعمل كاتبا فى أحد البنوك. وذات يومِ عطلة، رغب فى تمضية الأمسية فى مشاهدةِ شريطٍ سينمائى. وفيما كان يبحث فى الجريدة اليومية عن أفضل شريط يمكن أن يشاهده،

وقعتْ عيناه على إعلانٍ عن محاضرةٍ عامةٍ فى جامعة المدينة يلقيها أستاذ الفيزياء عن نظرية ألبرت أينشتاين. فقرَّر حضور المحاضرة. وما إن يبدأ المحاضر كلامه، حتى يغلب النعاس السيد تومبكنز، ويحلم بأنَّه يسافر فى مغامرةٍ فى الكون المنحنى عبر الزمان. وفى قصص الكتاب الأخرى، تستمر أحلام السيد تومبكنز فى القطار، وعلى ساحل البحر، وفى كل مكان يغلبه النعاس فيه. وكلُّ قصةٍ أو حُلم من هذه الأحلام يتناول جانبا من النظرية النسبية.

ألَن لايتمان وكتابه «أحلام أينشتاين»:

ولِد العالِمُ الأديبُ الأمريكىُّ ألَن لايتمان Alan Lightman فى مدينة ممفِيس فى ولاية تنسى سنة ١٩٤٨، وتلقَّى تعليمه العالى بجامعة برنستون الشهيرة ومعهد كالفورنيا التكنولوجى حيث نال شهادة الدكتوراه فى الفيزياء النظرية؛ وراح ينشر دراساته العلمية وأبحاثه التقنيّة فى أرقى المجلات الأكاديمية. ولم تقتصر مؤلَّفاته على الكتب المرجعية الخمسة التى تتناول قضايا العلم والتكنولوجيا، وإنّما اشتملت كذلك على مجموعتيْن من المقالات الأدبية، ومجموعةٍ شعرية، وخمسِ روايات. وقد تولّى لايتمان التدريس فى جامعة هارفرد، ثمَّ انتقل إلى معهد ماسشوستس التكنولوجى الذائع الصيت، الذى أسند إليه تدريسَ موادَ علميةٍ وأدبيةٍ فى آنٍ واحد، وهذا ما لم يحدث من قبل فى تاريخ هذا المعهد المرموق.

حققتْ روايته «أحلام أينشتاين» نجاحا هائلا، فتُرجِمت إلى أكثر من ثلاثين لغة فى العالم. وتتألَّف هذه الرواية من مجموعةِ قصصٍ قصيرة، تمثّل كلٌّ واحدة منها حُلما من أحلام العالِم ألبرت أينشتاين الذى وضع النظرية النسبية، حينما كان يعمل فى مكتبٍ لتسجيل براءات الاختراع بمدينة بيرن فى سويسرا سنة ١٩٠٥؛ فعندما كان ذلك الشابُّ العبقرىُّ منهمكا ببناء نظريته

النسبية، التى هى بمثابة مفهوم جديدٍ للزمان، راح يتخيَّل عوالمَ متعدِّدةً ممكنة؛ ففى أحد هذه العوالم يكون الزمان دائريا فيُكتَبُ على الناس فيه إعادة نجاحاتهم وإخفاقاتهم المرَّة تلو الأخرى. وفى عالم آخر يقف الزمان ساكنا، وفيه مكان يزوره الأحباب وهم متعانقون، والآباء وهم يحتضنون أطفالهم، دون حراك. وفى عالمٍ ثالث، تكون فيه دورة الزمان سريعة لدرجة أنَّ حياة المرء لا تزيد عن يومٍ واحد. فَمَن يولد بعد غروب الشمس، يميل إلى حياة الليل ويزاوِل المهن المنزلية ويزعجه ضوء النهار، وأمّا مَن يولَد بعد شروق الشمس، فيولَع بمزاولة المهن فى الهواء الطلق كالزراعة، ويخيفه ظلام الليل.

وكما هو واضح من العنوان، فإنَّ الدكتور ألَن لايتمان استخدم تقنية «الحُلم» فى روايته «أحلام أينشتاين»، وهى نفس التقنية التى سبق أن استخدمها الدكتور غاموف قبله فى كتابه «مغامرات السيد تومبكنز». إضافة إلى ذلك، فإنَّ البناء السردى فى كلتا الروايتيْن متماثل؛ فكلُّ روايةٍ تتألَّف من مجموعةٍ من الأحلام، كلُّ حلم فى قصة قصيرة، وتكوِّن هذه القصص بمجموعها روايةً كاملةً عمودها الفقرىّ المشترك هو النظرية النسبية ذاتها.

وهنا يتساءل المرء ما إذا كان الدكتور لايتمان قد تأثَّر بكتاب الدكتور غاموف؟

يقول العالِم الفيزيائى الأستاذ ستانارد فى مقدِّمته للطبعة الجديدة المزيدة لرواية غاموف، إنَّه على الرغم من أنَّ غاموف ألّفَ روايته لعامَّة المثقَّفين غير المتخصِّصين، فإنَّه ما مِن عالِمٍ فيزيائىٍّ لم يقرأ رواية غاموف فى فترةٍ ما من فترات حياته. والسؤال الذى يطرح نفسه كما يقولون هو: هل اطَّلع الدكتور ألَن لايتمان على رواية غاموف؟ وما مدى تأثُّره بها عندما كتبَ روايته «أحلام أينشتاين» ؟

من المحتمل جدا أنَّ لايتمَان قرأ رواية غاموف فى شبابه.

ولكن من التسرُّع بمكان أن نستنتج أن لايتمان قد تأثَّر بغاموف على الرغم من أن لايتمان قد استعمل تقنية الحُلم التى استخدمها غاموف قبله، وهيكلَ روايته على منوال روايته؛ فالحُلم هو التقنية الروائية المناسبة لسرد أحداث خيالية أو افتراضات تتعلّق بالكون والزمان. وحتى لو استخدم هذان الروائيان هيكلةً سرديةً واحدةً وبناءً روائيا واحدا، فإنَّهما يختلفان فى المضمون والأسلوب. فمع أنَّ مضمون الروايتيْن يستند إلى نظرية أينشتاين، فإنَّهما تناولا محاور من هذه النظرية، بعضها مشتركٌ وبعضها مختلفٌ. أمّا الأسلوب فهو متباينٌ تماما فى الروايتيْن.

يميل أسلوب غاموف إلى نوعٍ من التقريرية والمباشرية، إذ إنّه يضطرُّ أحيانا إلى إيرادِ بعض المعادلات الرياضية داخل فصول الرواية. وحتى الحروف الأولى من اسم بطل رواية غاموف، «السيد س.ج.هـ. تومبكنز»، ترمز فى اللغة الإنكليزية إلى ثلاثة ثوابت فيزيائية هى s = ثابت سرعة الضوء ، و g= ثابت الجاذبية، وh = ثابت الكم؛ وهى ثوابت يجب أن تحلَّ محلّها عواملُ لا حصر لها قبل أن يستطيع المرء ملاحظة تأثيرها وأثرها. وفى نظرى أنَّ الرموز العلمية والمعادلات الرياضية والفيزيائية هى من خصائص لغة العِلم، وليس لغة الأدب التى تحلّق فى الخيال وتتحرر من الضوابط الدقيقة الوجيزة. كما أنَّ هذه المعادلات الرياضية والفيزيائية التى استعملها غاموف، تتنافى قليلا مع غاية تبسيط العلم ومع الأسلوب الأدبى الذى يختلف عن الأسلوب العلمى. وهذا يذكّرنى بالعالِم البريطانى الشهير ستيفن هوكنز Stephen Hawkins أستاذ الرياضيات والفيزياء النظرية والفلك الكونى فى جامعة كيمبرج والمتخصّص فى الحفر (أو البقع) الكونية السوداء، الذى أُصيب بمرض أدّى إلى شلل بدنه بأكمله، ما عدا دماغه وبعض أصابعه، فصنعوا له كرسيّا خاصّا مزودا بحاسوب وبرامج تحوِّل ما يختاره من

كلمات وعبارات مكتوبة على شاشة الحاسوب إلى جملٍ صوتيةٍ مسموعة، لتمكينه من إلقاء محاضراته على كبار العلماء فى جامعتى كيمبرج البريطانية وهارفارد الأمريكية. وذاتَ يوم، قابله أحد الناشرين الكبار، واقترح عليه تبسيط نظرياته فى علم الفلك والحفر السوداء فى كتابٍ لعامّة المثقّفين، وليس للعلماء المتخصّصين؛ فوافق هوكنز على تأليف الكتاب، فاشترط الناشر أن يكون الكتاب خاليا من المعادلات الرياضية والفيزيائية. فوافق هوكنز على ذلك باستثناء معادلة واحدة. وهكذا ألّف كتابه الذائع الصيت: «**التاريخ الوجيز للزمان**» Brief History of Time. الذى تُرجِم إلى أكثر من ثلاثين لغة فى العالم.

إذا كان أسلوب غاموف متأثّرا بالأسلوب العلمى فى موضوعيته وتقريريته ومباشريته، فإنَّ أسلوب لايتمان قد جمع بين الموضوعية العلمية والخيال الأدبى الجموح، تماما كما جمع صاحبه بين البحث العلمىِ من جهةٍ، وكتابة الشعر والرواية والمقالة الأدبية من جهةٍ أُخرى. وهو جمع بين الأضداد لا يتأتّى إلا للعباقرة من العلماء الأدباء الأفذاذ.

نعم، يتميّز أسلوب السرد لدى ألَن لايتمان بخصائص الأسلوب العلمى من حيث: الإيجاز، ووضوح اللغة، وبساطتها، وقصر الجمل، ودقّة التعبير أى التطابق بين المفهوم واللفظ الذى يعبِّر عنه، وضبط طول كلّ فصلٍ من الفصول الخمسة والثلاثين فى روايته، فكلُّ فصل يقع فى ثلاث صفحات فقط، لا أكثر ولا أقلّ. كما أن توزيع فصول الرواية (أو الأحلام أو القصص القصيرة) جاء على نسق هندسى دقيق، يتمثّل فى المعادلة التالية:

مدخل + ٨ أحلام + فاصلة + ٨ أحلام + فاصلة + ٦ أحلام + خاتمة = ٣٥ قصة قصيرة = **رواية**.

بَيْدَ أنَّ أسلوبه يتحرّر من خصائص اللغة العلمية وانضباطها، من حيث إيرادُ ألفاظٍ مجازيةٍ مبتكرة غير مبتذلة،

ورسمُ صورٍ مجازيةٍ نادرة غير مستهلكة، والإتيانُ بلغةٍ شعريةٍ شفّافةٍ حالمة. وعندى، أَنّ المجاز هو الفيصل بين العلم والأدب، بين الحقيقة والخيال، بين الواقع والوهم، بل حتى بين العقل والجنون. وكما تتعانق القصص القصيرة فى «أحلام أينشتاين» وتلتحم لتلد روايةً جميلة، فإنَّ الصور المجازية فى كلِّ قصّةٍ تتضافر وتتشابك لتشكّل صورةً مجازيةً هائلةً متكاملة، أو بالأحرى، لوحةً تشكيليةً فنّيّةً خلابة، مطرّزةً بلمساتٍ شعريةٍ رقيقةٍ رشيقةٍ أنيقةٍ، بريشةِ فنّانٍ ماهرٍ ماكرٍ ساحرٍ.

لقد استخدمَ الدكتور ألَن لايتمان فى روايته تقنياتٍ سرديةٍ معروفةٍ من قبل، أو جديدةٍ خاصّةٍ به. استخدم هذه التقنيات بفطنةٍ ومهارة لينتج الأثر المطلوب فى نفس القارئ. فقد استعمل تقنية التكرار بأشكال متعدّدة، كأن يكرّر فاتحة القصة فى خاتمتها لتعطى الانطباع بالدوران والاستمرار. وفى الفصل الموسوم بـ «٢٥ حزيران/يونيو ١٩٠٥» مثلا، استعمل التكرار: تكرار الكلمات، وتكرار العبارات، وتكرار الجمل الكاملة؛ ليكثّف الانطباع بالهدوء والسكون والخمول فى يوم العطلة الأُسبوعية، تماما كما تتكرّر أنغام آلة السيتار الهندية لتبعث على الاسترخاء والنوم، فقال:

«عصر يوم الأحد. الناس يتنزّهون فى شارع الآر، وهم مُتلفِّعونَ بملابس يوم الأحد، وقد امتلأت بطونهم بغداء يوم الأحد، ويتحدّثون بصوتٍ خفيض بجانب خرير النهر. الحوانيت مغلقة... صاحبُ نُزُلٍ... يتّكئ على الحائط الحجرى، ويغمض عينيْه. الشوارع نائمة. الشوارع نائمة، وتطفو فى الجوِّ أنغامٌ موسيقيةٌ منسابةٌ من آلةِ كمان».

لاحظ التلاعب المقنّن فى طول العبارات، وهو تقنية أُسلوبية أُخرى؛ ففى آخر النصّ أعلاه تجد عبارتيْن قصيرتيْن مكرّرتيْن، تتلوهما عبارةٌ طويلةٌ جدا. تماما كما لو كنتَ تشاهد الأمواج

على شاطئ البحر: موجةٌ صغيرةٌ، فموجةٌ صغيرةٌ، تتبعهما موجةٌ طويلةٌ عالية فتجتاحهما تماما. منظرٌ يأسرُ انتباهك، ويغريك بمتابعة التأمُّل. فالكاتب يريد أن يعطى الانطباع بالكسل والخمول فى تلك المدينة عن طريق تكرار الألفاظ؛ ولكنّه فى الوقت نفسه، يريد الإبقاء على انتباه القارئ وانجذابه إلى النصّ المتدفِّق كأمواج البحر، عن طريق التفاوت فى طول العبارات.

إضافة إلى التقنيات السردية المتنوّعة، فإنَّ الدكتور ألَن لايتمان متمكّنٌ من لغته، عالِمٌ بأسرارها، حاذقٌ فى استعمالها. فهو يطوِّع الألفاظ والصيغ والتراكيب اللغوية لخدمة فرضياته العلمية ومراميه الزوائية. فصياغة العبارات والجُمل تختلف من نصٍّ إلى نصٍّ فى الرواية؛ فمثلا، فى قصة «١٥ أيار/ مايو ١٩٠٥» حيث يتصوَّر عالَما خاليا من الزمان، نجد نصَّ القصّة بأكمله خاليا من أيِّ فعلٍ من الأفعال: لا الفعل الماضى، ولا الفعل المضارع، ولا الفعل الدالِّ على المستقبل. مجرّد أسماء وصفات وحروف؛ لماذا؟ لأنّنا إذا أخذنا تقسيم النحو التقليدى للألفاظ على: اسم وفعل وحرف، أو كما يقول ابن مالك فى مطلع ألفيّته:

كلامُنا لفظٌ مفيدٌ كَـ «استقمْ» واسمٌ وفعلٌ ثُمَّ حرفٌ، الكَلِمْ

فإنَّ الاسم ما دلَّ على معنىً مستقلٍّ بالإدراك غيرِ مقترنٍ بزمنٍ معيَّن؛ والحرف ما دلَّ على معنىً غيرِ مستقلٍ بذاته، وإنَّما يربط معانى المفردات بعضها ببعض. أمَّا الفعل فهو ما دلَّ على حدثٍ مقترنٍ بزمنٍ معُين: الماضى، أو الحاضر، أو المستقبل.

ولهذا فعندما يتصوَّر أينشتاين فى حُلمه، أو بالأحرى الدكتور لايتمان فى قصته المذكورة، عالما خاليا من الزمان، فإنَّه يكتب النصَّ بأكمله خاليا من الأفعال على النحو التالى:

«طفلةٌ على الشاطئ، مسحورةٌ برؤيتها المحيط أوّل مرّة. امرأةٌ واقفةٌ على شرفةٍ فى الفجر، بشعرها المسدل، ومنامتها الحريرية الفضفاضة، وقدميْها الحافيتيْن، وشفتيْها. والطّاق المقوّس فى الرواق بالقرب من نافورة زاهرنغر فى شارع كرام،

من صخرٍ رملىٍّ وحديد. رجلٌ جالسٌ فى مكتبه الهادئ، حاملٌ صورةَ امرأة، ونظرةٌ أليمة على وجهه. عُقابٌ معلّقٌ فى السماء، جناحاه مبسوطان، أشعةُ الشمس نافذةٌ من خلال ريشه. فتىً جالسٌ فى قاعةٍ فارغة، خافق القلب، كما لو أنّه على خشبة المسرح. آثارُ أقدامٍ على الثلج فى جزيرة شتوية. قاربٌ على الماء فى الليل، وأضّواؤه خافتةٌ على البُعد، مثل نجمة حمراء صغيرة فى السماء الداكنة. صندوق حبوب طبيّة مقفل. ورقةُ شجرةٍ على الأرض فى الخريف، حمراءُ، ذهبيةٌ داكنةٌ، رقيقة. امرأةٌ جاثية بين الشجيرات، متربصةٌ بالقرب من منزل زوجها الذى هجرها، الذى لا بدَّ من الحديث معه. غبارٌ على عتبة النافذة...»

وهكذا يستمرُّ النصُّ حتى نهايته، صورا بلا حَدَثٍ، بلا حركة، أى بلا فعل، بل بأسماء وحروف فقط، لأنَّ صاحب الحُلم يفترض، فى هذه القصّة بالذات، وجودَ عالَم خالٍ من الزمان. ولذلك يخلو النصُّ من زمنٍ معيّن: ماضٍ أوٍّ حاضر أو مستقبل، وإنّما مجرّد ذوات وكائنات متجمِّدة لا حركة لها. فالحركة من فِعل الزمان. وهذا العالم المفترَض بلا زمان. وفوق ذلك كلِّه، فإن لايتمان يكتب هذا النصَّ فى فقرة طويلة واحدة دون أن يقسِّمه إلى فقرات، لأن التقسيم يوحى بشىءٍ من الحركة، وهذا العالم المفترض يخلو من الزمان، أى أنه يخلو من الحركة.

وفى حلم آخر، «١١ حزيران ١٩٠٥»، يتصوُّر عالَما بلا مستقبل، فيخلو النصُّ من الأدوات الدالة على المستقبل مثل «السين» و«سوف».

إنَّ لغة الدكتور لايتمان فى هذه الرواية مشرقة، واضحة، بسيطة، تخلو من الألفاظ الحوشية والتراكيب المعقَّدة التى قد تحجب المعنى. ولكن مع ذلك، فإنَّ ترجمتها ليست بالهيِّنة، لعدّة أسباب، أهمُّها أنَّ نصوصه ذات حمولةٍ علميةٍ ترتبط بالنظرية النسبية المعقّدة؛ ومنها أنَّ النصوص تتعلّق بعوالم

مفترَضة غير مألوفة للقارئ؛ ومنها أنَّ الكلمات الإنجليزية بسيطة قد يفهمها القارئ/ المترجم بمعناها العامِّ، فى حين أنَّ المؤلِّف استعمل بعضها بمعناها العلمىّ الخاصّ. وأقلُّ أسباب الصعوبة شأنا نابعةٌ من أنَّ الكلمة الأساسية فى هذه الرواية هى Time. وهذه الكلمة فى اللغة الإنجليزية مشتركٌ لفظىٌّ، تقابله فى العربية ثلاثُ كلماتٍ تختلفُ فى دلالاتها واستعمالاتها، وهى: **الزمان، والزمن، والوقت**، دون الدخول فى مفاهيم الأبد والدهر وغيرهما. ففى الاستعمال العربى الأصيل، يُعدُّ (الزمان) لفظا عاما شاملا يدلُّ على حركة الكون؛ وهو يتألَّف من (زمنٍ) ماضٍ، و(زمنٍ) مضارع، و(زمنٍ) مستقبل؛ فـ (الزمنُ) فترةٌ من الزمان، كما فى قولنا: «زمن الصِّبا ولّى» أو كما يقول نزار قبانى فى قصيدته « إلى نهدَيْن مغرورين»:

«عندى المزيدُ من الغرور
فلا تبيعينى غرورا..
من حُسنِ حظِّكِ
أَنْ غَدَوتِ حبيبتى
زمَنا قصيرا»

و(الوقت) جزءٌ صغير من (الزمن)، كما فى قولنا: «وقت الصبح» أو «دخل وقتُ صلاةِ العصر» أو كما قال الشاعر ديك الجن الحمصى الذى قتل حبيبته بسبب وشايةٍ كاذبةٍ، ثمَّ قتله الندم والأسى:

قولى لِطَيْفِــكِ يَنْثَنى عنْ مَضْجَعى وَقتَ الرّقادْ
كَى أَستَريحَ وتَنْـطَفى نــارٌ تــأجَّــجُ فى الفـؤادْ

وقد يقع الخلط فى الاستعمال مجازا أو بسبب استعمال العامِّ للخاصِّ وبالعكس.

فإذا لم يكُن المترجم ملمّا بالمبادئ العلمية التى تدور حولها الرواية، ولم يوجّه انتباها شديدا إلى كلِّ لفظةٍ فى معانيها المركزية والهامشية والمجازية والمختّصة، ولم يبذل عناية خاصة

بالتقنيات السردية الموظّفة فى النصوص، فقد يفوته الشىءُ الكثير (والله أعلم كم فاتنى شخصيا من مقاصد المؤلِّف). تصوّر فقط، كيف يمكن للمترجِم أن يُفسِد مقاصد المؤلِّف الأصلى الذى يكرّر اللفظ نفسه عدّة مرات لإنتاج أثرٍ معينٍ فى نفس القارئ، فيأتى (المترجِمُ) بمترادفاتٍ مختلفة لذلك اللفظ، تمشيا مع الذائقة العربية!

لقد تُرجِمَتْ رواية «أحلام أينشتاين» إلى أكثر من ثلاثين لغة، وألهمت الكتّاب، والسينمائيين، والموسيقيين، والمسرحيين، والرسّامين فى جميع أنحاء العالم. وإذا كان الدكتور لايتمان، فى هذه الرواية، قد سبح بخياله المتوثّب فى عوالم عجائبيةٍ محتملةٍ لا محدودة، ووضع أُسسا جديدة تقوم عليها علاقة العِلم بالأدب؛ فإنّه قد بَيَّنَ لنا كذلك، بأسىً وحزنٍ عميقيْن، مدى هشاشة الحياة البشرية وضعف الإنسان.

علي القاسمي

مراكش، يناير/ كانون الثانى ٢٠١١

كلمة شكر

يود المترجِم أن يشكر الشاعرة الأمريكية الدكتورة مورين كرايسك Maureen Crisick لتفضلها بمناقشة بعض ما أشكل عليه. كما يود أن يشكر صديقه الباحث الأستاذ البشير النظيفى لتفضله بمراجعة النصّ العربى.

مدخل

فى رواقٍ بعيد، يدقُّ برجُ ساعةٍ ستَّ مرّاتٍ ثمّ يتوقّف.

يتهالك الشابُّ على مكتبه. لقد حضر إلى الدائرة فى الفجر، بعد ليلةٍ مضطربةٍ أُخرى. شَعره أشعث، وسرواله كبير جدا. يمسك بيده عشرين صفحة مطوية، هى نظريته الجديدة عن الزمان، التى سيرسلها اليوم بالبريد إلى مجلة الفيزياء الألمانية.

تنساق أصواتٌ خفيضةٌ إلى الغرفة، ترتجُّ قنينةُ حليبٍ موضوعة على صخرة، تُفتَح مظلّة فى دكّانٍ فى السوق. تتحرّك عربةُ خضراواتٍ ببطءٍ فى شارع. يتحدّث رجلٌ وامرأة بنبرةٍ باهتة فى شقّةٍ قريبة.

وفى الضوء الخافت الذى يتسرَّب إلى الغرفة، تبدو المناضد مبهمة وواهنة مثل حيواناتٍ نائمةٍ كبيرة. وفيما عدا مكتب الشابّ، الذى تراكمتْ فوقه كُتُبٌ نصفُ مفتوحة، فإنّ المكاتب الاثنى عشر الأُخرى، المصنوعة من خشب البلّوط، كانت مغطاةً بعنايةٍ بوثائقَ تُرِكَت من اليوم السابق. وعند وصول الموظّفين بعد ساعتيْن، سيعرف كلُّ واحدٍ منهم أين يبدأُ بالضبط. ولكن فى هذه اللحظة، وفى هذا الضوء الخافت، فإنّ الوثائق لا يمكن رؤيتها، تماما مثل الساعة الحائطية فى زاوية الغرفة، أو مقعد السكرتيرة قرب الباب. كلُّ ما يمكن رؤيته فى هذه اللحظة، هو شكل المكاتب المبهم وهيئة الرجل الشاب المنحنية.

الساعة السادسة والدقيقة العاشرة، كما تبيّن الساعة غير المرئية على الجدار. دقيقة بعد دقيقة، تتّخذ أشياءٌ جديدةٌ شكلا. هنا، تظهر سلّةُ مهملات نحاسية. وهناك، تقويمٌ على الجدار. وهنا صورةٌ عائلية، وعلبةٌ من مشابك الأوراق، ومحبرة، وقلم. هناك آلةٌ كاتبة، سترةٌ مطوية على الكرسى. وفى الوقت المناسب، تبرز رفوفُ كتبٍ معتادةٌ من غشاوة الليل التى تغطى الجدران. تحمل رفوفُ الكتب دفاترَ براءات الاختراع. إحدى براءات الاختراعات تتعلّق بآلةِ حفر بأسنان مقوّسة بطريقة

تقلّل الاحتكاك. وبراءة اختراع أُخرى تقترح محوّلا كهربائيا يبقى الفولتية ثابتةً عندما تتغيّر القوة الكهربائية. وبراءة اختراع ثالثة تصف آلةً كاتبةً مزوّدة بِنضَدِ طباعة ذى سرعة منخفضة بحيث تتخلّص الآلة من الضوضاء. إنّها غرفةٌ مليئة بالأفكار العملية.

فى الخارج، تأخذ قمم جبال الألب فى اللمعان بفعل الشمس. إنّه آخر حزيران/ يونيو. مراكبىٌّ فى نهر الآره، يحلّ رباط قاربه الشراعىّ الصغير من الوتد ويغادر الشاطئ، تاركا التيار يأخذه فى نهر الآره على طول شارع آر حتى شارع غيربرن، حيث يسلّم محصوله الصيفى من التفّاح والأعناب. يصل الخبّاز إلى دكانه فى السوق، يشعل النار فى فرنه الفحمى، ويشرع فى خلط الطحين والخميرة. يتعانق حبيبان على جسر نيدغ، ويحدّقان بحزنٍ إلى النهر تحتهما. يقف رجلٌ فى شرفةِ شقته المطلّة على نهر شفلوبة، وهو يتأمُّل السماء الوردية. تتمشى امرأةٌ لم تستطِع النوم، بتؤدة فى شارع كرام، وهى تنعم النظر فى كلِّ رواق مظلم وتقرأ الملصقات فى الضوء الباهت.

وفى الإدارة الضيّقة الطويلة فى شارع شبيش، الغرفة المليئة بالأفكار العملية، ما يزال موظف براءات الاختراع يتمدّد فى كرسيّه ورأسه على مكتبه، فمنذ بضعة أشهر، منذ منتصف نيسان/ أبريل بالضبط، وهو يحلم أحلاما عديدة عن الزمان. وقد هيمنت أحلامه على بحوثه. أتعبته أحلامه، أرهقته لدرجة أنّه لم يعُد أحيانا يعرف ما إذا كان مستيقظا أم نائما. ولكن الأحلام انتهت. ومن بين طبائع الزمان الممكنة العديدة التى تصوّرها فى ليالٍ عديدة، يبدو إحداها يفرض نفسه بقوّة عليه، ليس لأن الطبائع الأخرى مستحيلة. فقد توجد فى عوالم أُخرى.

يتململ الرجل الشاب فى كرسيه، وهو ينتظر وصول الضاربة على الآلة الكاتبة، ويدندن بصوتٍ واطئ بمقطوعة ضوء القمر لبيتهوفن.

١٤ نيسان/ أبريل ١٩٠٥

لنفترض أنَّ الزمان دائرة، تدور على نفسها، والعالم يعيد نفسه، بطريقةٍ مضبوطة لا متناهية.

فى أغلب الأحوال، لا يعلم الناس أنَّهم سيعيشون حياتهم مرَّة أُخرى. التُّجار لا يعلمون أنَّهم سيعقدون الصفقات نفسها مرَّةً بعد أُخرى. والسياسيون لا يعلمون أنَّهم سيصرخون من على المنصة ذاتها مرّات لا محدودة فى دورات الزمان. والوالدان يتذكَّران أوَّل ضحكةٍ أطلقها طفلهم، كما لو أنَّهم لن يسمعوها مرَّةً أُخرى. والعشَّاق الذين يمارسون الجنس أوَّل مرّة، تغلبهم الدهشة لدى رؤية الأرداف اللدنة والحلمات الطرية. أنّى لهم أنْ يعلموا أنَّ كلَّ لمحةٍ سرِّية، وكلَّ لمسةٍ، ستُعاد مرَّةً أُخرى، وأُخرى، وأُخرى، تماما كما فى السابق؟

فى السوق، الأمر نفسه. كيف يعلم أصحاب الدكاكين أنَّ كلَّ سترةٍ مصنوعة باليد، وكلَّ منديل مطرَّز، وكلَّ قطعة شوكولاتة، وكلَّ بوصلةٍ معقَّدة وساعة، سترجع إلى مكانها؟ فى الغسق، يعود أصحاب الدكاكين إلى بيوتهم وعائلاتهم، أو يشربون الجِعَة فى الحانات، وهم ينادون بانشراح أصدقاءَهم المارين فى الممرّات المسقوفة، وهم يقبّلون كلَّ لحظة مثل زمرّدة فى صندوق وديعة مؤقَّتة! أنّى لهم أن يعلموا أنَّه لا يوجد شيء مؤقَّت، وأنَّ كلَّ شيءٍ سيحدث مرَّةً أُخرى؟ إِنَّهم لا يعلمون ذلك أكثر من أية نملةٍ تدبُّ حول إطار شمعدان من الكريستال، فهى ستعود من حيث بدأت.

فى المستشفى الكائن فى شارع غيربرن، تودِّع امرأةٌ زوجها، المسجّى على الفراش، وهو يحدّق إليها بعينيْن فارغتيْن؛ فخلال الشهرين الماضييْن، انتشر السرطان من حنجرته إلى كبده وغدّة البنكرياس ودماغه؛ ويجلس طفلاه الصغيران على كرسيٍّ واحدٍ فى زاوية الغرفة، وهما يخشيان النظر إلى أبيهما،

وخدّيه الغائرين، وجلده الذابل مثل جلدِ رجلٍ طاعنٍ فى السنّ. تأتى الزوجة إلى الفراش، وتقبّل زوجها بلطفٍ على جبهته، وتهمس وداعا، وتغادر بسرعةٍ مع الطفليْن؛ وهى متأكّدة من أنَّ تلك القُبلة هى الأخيرة. كيف تستطيع أنْ تعرف أنَّ الزمان سيبدأ مرةً أُخرى، وأنّها ستُولَد مرّة أُخرى، وستدرس فى المدرسة الثانوية مرّةً أُخرى، وستعرض لوحاتها فى قاعة العرض فى مدينة زوريخ، وستلتقى مرّة أُخرى مع زوجها فى المكتبة الصغيرة فى بلدة فرايبورغ، وسترافقه، مرّةً أُخرى، فى زورقٍ شراعىٍّ فى بحيرة ثون فى يوم حارٍ من أيامِ تموز/ يوليو، وستلد طفلا مرّةً أُخرى، وأنَّ زوجها سيعمل مرّة أُخرى فى مختبرٍ صيدلىٍّ ثمانى سنوات، ويعود إلى المنزل ذات مساء وعلى حنجرته انتفاخ، وسيتقيأ مرّةً أُخرى، ويشعر بالضعف، وينتهى الأمر به فى هذا المستشفى، فى هذا الفراش، فى هذه اللحظة. أنّى لها أنْ تعلم؟

فى العالم الذى يكون فيه الزمان دائرة، كلُّ مصافحة، وكلُّ قُبلة، وكلُّ كلمة، ستُعاد بالضبط. وهكذا ستُعاد، كذلك، كلُّ لحظةٍ تنتهى فيها صداقة صديقيْن، وكلُّ وقتٍ تتحطَّم فيه عائلةٌ بسبب المال، وكلُّ عبارةٍ قاسية تُقال خلال مناقشةٍ بين زوجيْن، وكلُّ فرصةٍ تُضاع بسبب غيرة الرئيس، وكلُّ وعدٍ لا يوفى به.

وكما أنَّ جميع الأشياء ستُعاد فى المستقبل، فإنَّ جميع الأشياء التى تحدث حاليا، كانت قد حدثتْ ملايين المرات من قبل. وهناك أُناسٌ قلائل فى كلِّ بلدة، يدركون بصورةٍ مبهمة، من خلال أحلامهم، أنَّ كلَّ شىءٍ قد حدث فى الماضى. هؤلاء هم الناس الأشقياء فى حياتهم، الذين يحسّون بأنَّ أخطاءَهم، وذنوبهم، وسوء حظّهم جميعها قد حصلتْ فى دورات الزمان الماضية. وفى الليل البهيم، يتلوّى هؤلاء المواطنون الذين حلّتْ بهم اللعنة، فى مُلاءات أفرشتهم، غير قادرين على الاسترخاء، تدهمهم معرفتهم أنّهم لا يستطيعون تغيير فعلٍ واحد، ولا إشارة واحدة. فأخطاؤهم ستتكرَّر بالضبط فى هذه الحياة

كما فى الحياة السابقة. وهؤلاء التعساء مرّتيْن، هم الذين يعطوننا العلامة الوحيدة التى تدلُّ على أنَّ الزمان دائرة. ففى كلِّ بلدة، فى الساعات الأخيرة من الليل، تمتلئ الشرفات والشوارع الفارغة بأَنينِهم.

١٦ نيسان/ أبريل ١٩٠٥

فى هذا العالم، الزمان مثل جريان الماء، ينزاح أحيانا بسببِ قطعةِ حطام أو نسمةٍ عابرة. بين الفينة والأُخرى، يتسبَّب اضطرابٌ كونىٌّ ما، فى ابتعادِ نهيرِ الزمان عن مجراه الرئيسى ليتّصل بمجرًى فرعىٍّ. وعندما يحدث ذلك، فإنَّ الطيور، والحياة الزراعية، والناس الذين داهمهم الرافد الفرعى، يجدون أنفسهم محمولين فجأةً إلى الماضى.

ويمكن التعرُّف بسهولة على الأشخاص الذين يُنقَلون إلى الماضى. فهم يرتدون ملابسَ غامضةً داكنةَ الألوان، ويمشون على رؤوسِ أصابعِ أقدامهم، محاولين أن لا يُحدِثوا أىَّ صوت، ومحاولين أن لا يتسبَّبوا فى ثنى ورقةِ عشبٍ واحدة، لأنَّهم يخشون أنَّ أىَّ تغييرٍ يُحدثونه فى الماضى، قد تكون له نتائجُ وخيمةٌ فى المستقبل.

فى هذه اللحظة بالذات، مثلا، تجثم امرأةٌ من هؤلاء الأشخاص، فى ظلال رواقٍ عند رقم ١٩ فى شارع كرام، وهو مكانٌ غريب لمسافرٍ من المستقبل، ولكن ها هى هناك. ويمرُّ المشاة بها، ويحدِّقون إليها، ويواصلون سيرهم. وهى تربض فى زاويةٍ، ثمَّ تزحف بسرعةٍ عبر الشارع، وتنكمش فزِعةً فى بقعةٍ مظلمةٍ أُخرى، عند الرقم ٢٢. إنَّها خائفةٌ من أنَّها ستثير الغبار، عندما يمرُّ بها شخصٌ يدعى بيتر كلاوسن، وهو فى طريقه إلى الصيدلية الكائنة فى شارع شبايتل، هذا المساء من يوم ١٦ نيسان/ أبريل ١٩٠٥. وكلاوسن رجلٌ متأنِّقٌ ويكره أن تتَّسخ ملابسه، فلو لطَّخ الغبار بذلته، فإنَّه سيتوقَّف ويزيله بالفرشاة بكلِّ عناية، بغض النظر عن المواعيد التى تنتظره. وإذا تأخَّر كلاوسن بصورةٍ كافية، فإنَّه قد لا يتمكَّن من شراء المرهم لزوجته، التى تشكو من أوجاعٍ فى ساقها منذ أسابيع. وفى تلك الحالة، فإنَّ زوجة كلاوسن، وهى فى مزاجٍ عَكِر، قد تقرِّر أن لا تقوم بالرحلة

إلى بحيرة جنيف. وإذا لم تسافر إلى بحيرة جنيف فى اليوم الثالث والعشرين من شهر حزيران/ يونيو ١٩٠٥، فإنّها لن تقابل شابةً تدعى كاترين دى أبينه، وهى تتمشّى على رصيف الشاطئ الشرقى من البحيرة، ولن تقدِّم الآنسة دى أبينه إلى ابنها ريتشارد. ونتيجةً لذلك، فإنَّ ريتشارد وكاترين لن يتزوجا فى السابع عشر من كانون الأوّل/ ديسمبر ١٩٠٨، ولن ينجبا فريدريك فى الثامن من تموز/ يوليوز ١٩١٢. وفريدريك كلاوسن لن يكون أبا لهانس كلاوسن فى الثانى والعشرين من آب/ أغسطس ١٩٣٨، وبدون هانس كلاوسن، فإنَّ الاتحاد الأوربى لن يُعلَن سنة ١٩٧٩.

وتشقّ المرأة القادمة من المستقبل طريقها، دون سابق إنذار، فى هذا الزمان وهذا المكان، وتحاول الآن أن لا يراها أحدٌ وهى فى مكمنها المظلم عند الرقم ٢٢ فى شارع كرام، وهى تعرف قصة كلاوسن، وألْفَ قصّةٍ أُخرى تنتظر الظهور للعِيان، بالاعتماد على ولاداتِ الأطفال، وتحرّكات الناس فى الشوارع، وتغريد الطيور فى لحظاتٍ معيّنة، والمواقع المضبوطة للكراسى، والريح. تنزوى هذه المرأة فى الظلال، ولا تبادل الناس تحديقهم. إنّها تنزوى هنا وتنتظر أن يحملها مجرى الزمان إلى زمانها الخاصّ بها.

وعندما يتوجّب على مسافرٍ من المستقبل أن يتكلّم، فإنّه لا يتكلّم وإنّما يئنّ. يهمس بأصواتٍ معذَّبة. فهو يتألّم، لأنّه إذا أَحْدثَ أىَّ تغيير، مهما كان ضئيلا، فى أىِّ شىءٍ، فإنّه قد يحطّم المستقبل. وفى الوقت نفسه، فهو مضطرٌّ إلى مشاهدة أحداثٍ دون أن يكون جزءا منها، ودون أن يغيِّرها. وهو يحسد الناس الذين يعيشون زمانهم الخاص بهم، ويستطيعون أن يعملوا وفق إرادتهم. ولكنّه ليس قادرا على الفعل. إنّه غازٌ خامل، شبحٌ، جسمٌ بلا روح. لقد فقدَ شخصيّته. إنّه منفى من الزمان.

إنَّ مثل هؤلاء الناس البؤساء القادمين من المستقبل،

يمكن أن تجدهم فى كلّ قرية، وفي كلّ بلدة، وهم يختبئون تحت زوايا البنايات، وفى سراديبها، وتحت الجسور، وفى الحقول المهجورة. ولا أحد يسألهم عن الحوادث القادمة، عن الزيجات المستقبليّة، والمواليد، والتمويلات، والمخترعات، والأرباح التى ستتحقّق. وبدلا من ذلك، فإنهم يُترَكون لحالهم، ويُرثى لهم.

١٩ نيسان/ أبريل ١٩٠٥

إنّه صباحٌ باردٌ من شهر تشرين الثانى/ نوفمبر، وقد تساقط أوّلُ الثلج. رجلٌ يرتدى سترةً جلديَّةً طويلةً يقف فى شرفةِ شقّته فى الطابق الرابع فى شارع كرام، وهو يطلُّ على نافورة زاهرنغر والشارع الأبيض تحته. إلى الشرق، يستطيع أن يرى البرج الهش لكاتدرائية القديس فانسان؛ وإلى الغرب، السطح المنحنى لبرج الساعة الكبيرة. ولكنَّ الرجل لا ينظر لا إلى الشرق ولا إلى الغرب. إنَّه يحدِّق أسفله إلى قبّعةٍ حمراءَ صغيرةٍ متروكةٍ فى الثلج تحته، ويفكِّر: هل ينبغى أن يذهب إلى بيت المرأة فى بلدة فرايبورغ؟ تقبض يداه بشدّة على درابزين الشرفة المعدنى، وتطلقانه، وتقبضان عليه. هل ينبغى أن يزورها؟ هل ينبغى أن يزورها؟

يقرِّر أن لا يراها مرَّةً أخرى. فهى استغلالية تسلُّطية، وفى مقدورها أن تجعل حياته تعيسة. ولعلّها ليست مهتمَّة به، على أىِّ حال. ولهذا فإنّه يقرِّر أن لا يراها مرَّةً أُخرى. وبدلا من ذلك، فإنّه سيتسمرُّ فى رفقة زملائه من الرجال. فهو يعمل فى معملٍ للأدوية حيث نادرا ما يرى مساعِدةَ المدير. يذهب، فى الأُمسيات، مع أصدقائه إلى المقهى فى شارع كوشر، ويشرب الجعة، ويتعلَّم كيف يُعِدُّ أكلة الجُبن المذوَّب. ثمَّ، وبعد ثلاث سنوات، يلتقى بامرأةٍ أُخرى تعمل فى محلٍّ للملابس فى بلدة نيوشاتل. إنّها لطيفة، وتظلّ تطارحه الغرام بطريقةٍ بطيئةٍ جدا جدا، طوال شهور. وبعد سنة، تأتى لتسكن معه فى بيرن. يعيشان بهدوء، يتمشّيان فى محاذاة نهر الآره، يواظبان على رفقة أحدهما الآخر، يكبران وهما راضيان.

وفى العالَم الثانى، يقرِّر الرجل ذو السترة الجلدية الطويلة، أنّه يجب عليه أن يرى المرأة فى بلدة فرايبورغ مرَّةً أُخرى. لا يعرفها حقّا، وقد تكون استغلالية، وحركاتها تنم عن التقلُّب،

ولكن، تلك الطريقة التى يصبح فيها وجهها لطيفا عندما تبتسم، وتلك الضحكة، وذلك الاستعمال الذكىّ للكلمات... نعم، يجب أن يراها مرَّةً أُخرى. يذهب إلى بيتها فى فرايبورغ، يجلس معها على الأريكة؛ وخلال دقائق، يشعر بخفقان قلبه، يضعف لدى رؤية بياض ذراعيها. يتطارحان الغرام بصوت مرتفع وبلهفة. تُقنعه بالانتقال إلى فرايبورغ. يغادر وظيفته فى بيرن، ويبدأ العمل فى مكتب بريد فرايبورغ. يذوب حبًا فيها. يأتى إلى المنزل ظهرا كلَّ يوم. يأكلان، يتطارحان الغرام، يتناقشان، تشكو له حاجتها إلى مزيد من المال، يحتجّ عليها، ترمى عليه الصحون، يتطارحان الغرام مرَّةً أُخرى، ويعود إلى مكتب البريد. تهدِّد بهجره، ولكنَّها لا تهجره. فهو يعيش من أجلها، وهو سعيدٌ بشقائه.

وفى العالم الثالث، يقرِّر أيضا أنَّه يجب أن يراها مرَّةً أُخرى. لا يعرفها حقًّا، فقد تكون استغلالية، وحركاتها تنمّ عن التقلُّب. ولكن، ابتسامتها، وضحكتها، واستعمالها الذكى للكلمات! نعم، يجب أن يراها مرَّةً أُخرى. يذهب إلى منزلها فى فرايبورغ، يلتقيها عند الباب، يتناول الشاى معها على منضدة المطبخ. يتحدّثان عن عملها فى المكتبة، وعن عمله فى معمل الأدوية. وبعد ساعةٍ، تقول إنَّ عليها أن تغادر المنزل لمساعدة صديقةٍ لها، فتودِّعه، ويتصافحان. يقطع الثلاثين كيلومترا عائدا إلى بيرن، يشعر بالفراغ خلال رحلة العودة بالقطار، يذهب إلى شقَّته فى الطابق الرابع فى شارع كرام. يقف على الشرفة، ويحدِّق إلى الأسفل فى قبَّعةٍ حمراءَ صغيرةٍ متروكةٍ فى الثلج.

هذه السلاسل الثلاث من الحوادث تقع فى الواقع متزامنةً فى وقتٍ واحد. لأن للزمان، فى هذا العالم، ثلاثة أبعاد، مثل المكان. وكما قد يتحرَّك الشىء فى اتجاهات متعامدة مطابقةً للأُفقى، والعمودى، والطولى؛ فإنَّ الشىء قد يشارك فى ثلاثة أنواع متعامدة من المستقبل. وكلُّ مستقبلٍ يتحرَّك فى اتجاهٍ

مختلفٍ من اتجاهات الزمان. وكلٌّ مستقبلٍ حقيقيٌّ. وعند كلِّ لحظةِ اتخاذ قرار، فيما إذا كان سيزور المرأة فى فرايبورغ أو يشترى سترةً جديدة، فإنَّ العالم ينشطر إلى ثلاثة عوالم، فى كلِّ واحدٍ منها يوجد الناس أنفسهم، ولكن بمصائر مختلفة. ففى الزمان، هنالك عدد لا متناهٍ من العوالم.

بعضهم يتّخذ قراراته بخفّة، مدَّعيا أنَّ جميع القرارات الممكنة ستحصل. فى مثل هذا العالم، كيف يمكن أن يكون الفرد مسئولا عن أعماله؟ وبعضهم الآخر يرى أنَّ كلَّ قرار يجب أن يُمحَّص ويُلتزَم به، فبدون الالتزام ستكون ثمّة فوضى. ومثل هؤلاء الناس يرضون بالعيش فى عوالم متناقضة، ما داموا يعرفون السبب فى كلِّ عالَمٍ منها.

٢٤ نيسان/ أبريل ١٩٠٥

فى هذا العالم يوجد زمانان. فهناك زمان ميكانيكى (آلى) وزمان ذاتى (جسمى). الأوّل صلبٌ ومعدنى، مثل بندولٍ ضخمٍ من الحديد يتأرجح يمينا وشمالا، يمينا وشمالا، يمينا وشمالا. والثانى يتلوّى ويتعرّج مثل سمكة قنبر فى خليج. الأوّل قاسٍ ومحتّم، والثانى يتّخذ قراره فيما هو يواصل سيره.

كثيرون مقتنعون بأنّه لا وجود للزمان الميكانيكى. فعندما يمرّون على برج الساعة العملاقة فى شارع كرام، فإنّهم لا يرونها؛ ولا يسمعون أجراسها، فيما هم يبعثون بإرساليّاتهم فى شارع البريد، أو عندما يتنزّهون بين الأزهار فى حديقة الورود. يحملون ساعاتٍ يدويةً فى معاصمهم، ولكن بوصفها مجرّد زينة أو مجاملة لأولئك الذين يقدّمون الساعات هدايا. وهم لا يحتفظون بساعاتٍ حائطيةٍ فى منازلهم. وبدلا من ذلك، فإنّهم ينصتون إلى دقّات قلوبهم. فهم يستشعرون إيقاعات أمزجتهم ورغباتهم. وهؤلاء الناس يأكلون عندما يجوعون، ويذهبون إلى أعمالهم فى مصنع القبعات النسائية أو فى الصيدلية عندما يستيقظون من نومهم، ويمارسون الجنس فى أيّة ساعة من ساعات اليوم. هؤلاء الناس يسخرون من فكرة الزمان الميكانيكى؛ فهم يعرفون أنّ الزمان يتحرّك على نحو متقطّع وغير منتظم. يعرفون أنّ الزمان يتقدّم بصعوبة كبيرة وهو ينوء تحت عبءٍ ثقيلٍ على ظهره، عندما يحملون مسرعين طفلا جريحا إلى المستشفى، أو يتحمّلون نظرة جارٍ مظلوم. وهم يعرفون كذلك أنّ الزمان يجرى مسرعا عبر حقل الرؤية، عندما يأكلون بشهية مع أصدقاء أو يتلقّون الثناء، أو يسترخون بين ذراعَى عاشقٍ سرّى.

ثمّ، هنالك أولئك الذين يعتقدون أنّ أجسادهم ليست موجودة. فهم يعيشون بالزمان الميكانيكى. ينهضون فى الساعة

السابعة صباحا. يتناولون غداءَهم عند الظهر، وعشاءَهم فى الساعة السادسة. يصلون إلى مواعيدهم فى الوقت المحدَّد طبقا للساعة بالضبط. يمارسون الجنس بين الساعة الثامنة والعاشرة ليلا. يشتغلون أربعين ساعة فى الأسبوع، ويقرءون صحيفة الأحد يوم الأحد، ويلعبون الشطرنج فى أماسى أيام الثلاثاء. عندما تقرقر بطونهم، ينظرون إلى ساعاتهم ليتأكّدوا أنَّ وقت الأكل قد حان. وعندما يبدءون بنسيان أنفسهم فى حفلةٍ موسيقية، فإنّهم ينظرون إلى الساعة الحائطية فى أعلى المسرح ليعرفوا الوقت الذى ينصرفون فيه إلى بيوتهم. إنَّهم يعرفون أنَّ الجسد ليس شيئا من سحرٍ عجيب، ولكنّه مجموعة من الكيميائيّات، والأنسجة، والنبضات العصبية. فالأفكار ليست سوى موجاتٍ كهربائيةٍ فى الدماغ. والانتصاب الجنسى ليس سوى تدفُّق كيميائيّات إلى نهايات عصبيّة معيّنة. والحزن ليس سوى بعض الحامض الذى يُحقَن فى المخيخ. باختصار، الجسد هو ماكينة تخضع لنفس قوانين الكهرباء والميكانيكا، تماما مثل الإلكترون أو الساعة. وعلى هذا النحو، يجب أن يُنظَر إلى الجسم فى ضوءِ لغةِ الفيزياء. وإذا تكلّم الجسم، فإنّه مجرَّد كلامِ مجموعةٍ من العتلات والقوى الدافعة. فالجسم شىءٌ ينبغى التحكُّم فيه لا الخضوع له.

ولو تنزّه الإنسان ليلا بمحاذاة نهر الآره، فإنّه يرى شاهدا لكلا العالمَيْن فى وقتٍ واحد. هناك مراكبىٌّ يحدّد موقعه فى الظلام عن طريق عدّ الثوانى المنجرفة فى مجرى الماء. «واحد، ثلاثة أمتار اثنان، ستة أمتار. ثلاثة، تسعة أمتار». ويشقُّ صوتُه الظلامَ بمقاطعَ واضحةٍ ومحدَّدة. وهناك تحت ضوء عمود النور على جسر نيدغ، يقف أخَوان لم يرَ أحدهما الآخر مدّة عام كامل، يشربان ويضحكان. وتُقرع أجراسُ كاتدرائية القديس فانسان عشر مرات. وبعد ثوانٍ، ستنطفئ أضواء الشقق المطلّة على (شفلوب)، فى تجاوبٍ ميكانيكىٍّ تامٍ، مثل عمليات الطرح

فى هندسة إيقليدس. وهناك على شاطئ النهر، يسترخى عاشقان وينظران بتكاسل، وقد استيقظا من نومٍ غير محدّد، بسبب أجراس الكنيسة البعيدة، ويندهشان لهبوط الليل.

حيثما يلتقى الزمانان، يكون اليأس. وحيثما يسير الزمانان فى طريقيْن مختلفيْن، يكون الرضا؛ لأنّه بصورةٍ من صور الإعجاز، يستطيع المحامى أو الممرضة، أو الخباز، أن يبنى عالما فى أحد الزمانيْن، وليس فى كليهما. فكلُّ زمان هو حقيقة، ولكنّ الحقيقتيْن ليستا نفس الشىء.

٢٦ نيسان/ أبريل ١٩٠٥

فى هذا العالم، يتّضح، فى الحال، وجودُ شيءٍ غريب؛ إذ لا يمكن رؤية أيّة بيوت فى الوديان أو السهول. فجميع الناس يسكنون فى الجبال.

فقد اكتشف العلماء، فى وقتٍ ما فى الماضى، أنّ الزمن يجرى بصورةٍ أبطأ كلّما ابتعدنا عن مركز الأرض. إنّ تأثير ذلك ضئيلٌ جدا، ولكن يمكن أن يُقاس بأجهزةٍ بالغةِ الدقّة. وحالما عُرِفَت تلك الظاهرة، انتقل إلى الجبال أناسٌ قلائل من المتلهّفين إلى الاحتفاظ بشبابهم. والآن أصبحت جميع المنازل تُبنَى على جبل (القبة)، وجبل (القرن)، وجبل (الورد)، والمناطقِ المرتفعة الأُخرى. وأمسى من المستحيل بيعُ المساكن فى أىّ مكانٍ آخر.

لا يرضى العديد من الناس ببناءِ منازلهم على الجبال فحسب؛ بل، لكى يحصلوا على أفضل نتيجة، فإنّهم شيّدوا دورهم على ركائزَ مرتفعةٍ. فصارت قمم الجبال حول العالم مكتظةً بمثل هذه البيوت التى تبدو من على البُعد مثل سرب من الطيور السمينة واقفة على سيقانٍ نحيفة. وقد بنى أناسٌ توّاقون إلى أن يعمّروا أطول مدّةٍ ممكنة، منازلهم على أعلى الركائز. وفى الحقيقة، ترتفع بعض المنازل نصف ميلٍ بفضل قوائمها الخشبية المستدقّة الطول. وأضحى الارتفاع دليلا على المكانة الاجتماعية المرموقة. وعندما يتوجّب على شخصٍ من الأشخاص النظر من شباك مطبخه إلى الأعلى ليرى جاره، فإنّه يعتقد بأنّ ذلك الجار لن يُصاب بتصلُّب المفاصل بنفس السرعة، ولن يفقد شعره إلا فى وقت لاحق، ولن تظهر التجاعيد على وجهه حتّى متأخرا، ولن يفقد رغبته فى المغامرة الرومانسية مبكّرا مثله. وبطريقة مماثلة، فإنّ الشخص الذى يلقى نظرةً إلى الأسفل على منزلٍ آخر، يميل إلى الاستهانة بساكنيه بوصفهم أناسا رخيصين، وضعاف، وقصيرى النظر. ويتباهى بعضهم بأنّهم سكنوا فى الأعالى طوال حياتهم، وأنّهم وُلِدوا

فى أعلى منزلٍ على أعلى قمّةِ جبل، ولم ينزلوا قطّ. ويحتفون بشبابهم بالنظر فى مراياهم، ويتمشّون عرايا على شرفات منازلهم.

وبين الفينة والأُخرى، يدعو أمرٌ عاجلٌ بعض الناس للنزول من منازلهم، فيفعلون ذلك بسرعة، وهم يهرولون هابطين السلالم الطويلة إلى القاع، ويجرون إلى سُلّم آخر أو إلى الوادى تحتهم، وينهون معاملاتهم، ويرجعون بأسرع ما يمكن إلى منازلهم، أو إلى أماكن عالية أُخرى. فهم يعرفون أنّه مع كلّ خطوةٍ إلى الأسفل، يمرّ الزمن بصورة أسرع قليلا، وأنّهم يشيخون بصورة أسرع قليلا. وعندما يكون الناس فى مستوى سطح الأرض، فإنّهم لا يجلسون أبدا، وإنّما يجرون وهم يحملون حقائبهم أو مشترياتهم.

وقد كفّ عددٌ قليلٌ من السكان فى كلّ مدينة، عن الاهتمام بما إذا كانوا سيشيخون أسرع من جيرانهم ببضع ثوانٍ. وهؤلاء الأشخاص المغامرون ينزلون إلى العالم الأسفل بضعة أيّامٍ فى كلّ مرّة، ويستريحون تحت الأشجار التى تنبت فى الوديان، ويستحمّون باسترخاءٍ فى البحيرات التى تقع فى المنحدرات الدافئة، ويسيرون على سطح الأرض. وقلّما ينظرون إلى ساعاتهم، وليس فى مقدورهم أن يخبروك ما إذا كان اليوم هو يوم إثنين أو يوم خميس. وعندما يمرّ بهم الآخرون مسرعين، فإنّهم يبتسمون فقط.

وبمرور الوقت، نسى الناس السبب وراء تفضيل الأماكن العالية. ومع ذلك، واظبوا على السُّكنى فى الجبال، وتجنُّب المناطق المنخفضة بقدر الإمكان، وتعليم أطفالهم تجنُّب الأطفال القادمين من ارتفاعات واطئة. وهم يتحمّلون برد الجبال بِحُكم العادة، ويتمتّعون بذلك الإزعاج بوصفه جزءا من تربيتهم. حتّى إنّهم أقنعوا أنفسهم بأنّ الهواء الخفيف مفيدٌ لأجسامهم، وتبعا لذلك المنطق، التزموا بحمية ضنينة، رافضين كلّ شيءٍ ما عدا النزر اليسير من الغذاء. وبمرور الوقت، أصبح السكّان نحافا كالهواء الخفيف، ونحيلين، وشيوخا قبل الأوان.

٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٠٥

لا يستطيع المرء أن يمشى فى شارع، أو يتحدَّث مع صديق، أو يدخل بناية، أو يلقى نظرة على السلع المعروضة تحت أقواس مبنية من الحجر الرملى فى رواق قديم، دون أن يلقى آلةً من آلات الزمان. فالزمان يُشاهَد فى جميع الأماكن. ثمَّة أبراجُ الساعات الكبيرة، وساعاتٌ يدوية، وأجراسُ الكنائس التى تقسِّم السنوات إلى شهور، والشهور إلى أيام، والأيام إلى ساعات، والساعات إلى ثوانٍ، وكلُّ جزيئة مضافة من الزمان تسير وراء الجزيئة الأُخرى فى تعاقبٍ مضبوط. وخلف كلِّ ساعةٍ حائطيةٍ معينة، سِقالة كبيرة من الزمان، تمتد عبر الكون، وتفرض قانون الزمان على الجميع بالتساوى. فى هذا العالم، الثانية هى الثانية هى الثانية. والزمان يتقدَّم باطّراد مُتقن، وبنفس السرعة تماما فى كلِّ زاوية من الفضاء. الزمان هو حاكم أبدى. الزمان مطلق.

فى كلِّ يومٍ بعد الظهر، يتجمهر سكان مدينة بيرن فى النهاية الغربيةً من شارع كرام. وهناك، فى الساعة الثالثة إلا أربع دقائق، تحتفى الساعة الكبرى (تسايكلوكتيرم) بالزمان؛ فعلى تاج البرج يرقص المهرِّجون وتصيح الديكة، وتعزف الدببة الناى وتقرع الطبل، وجميع حركاتها وأصواتها الميكانيكية متزامنةٌ تماما مع دوران التروس والاسطوانات التى هى بدورها مستوحاة من كمال الزمان. وفى الساعة الثالثة بالضبط، يدق جرسٌ ضخمٌ ثلاث مرات، فيدقِّق الناس ساعاتهم اليدوية، ثمَّ يعودون إلى إداراتهم فى شارع شبيش، وإلى دكاكينهم فى السوق، وإلى مزارعهم عبر الجسور القائمة على نهر الآره.

وينظر المؤمنون إلى الزمان بوصفه برهانا على وجود الله، لأنَّه، من المؤكَّد، لا شئ يمكن أن يُخلَق كاملا من غير خالق. ولا شىء يمكن أن يكون كونيًا دون أن يكون مقدَّسا. وجميع الأشياء المطلقة هى جزءٌ من الأحد الصمد. وحيثما توجد

الأشياء المطلقة يوجد الزمان. وهكذا وضع فلاسفةُ الأخلاقِ الزمانَ فى مركز معتقدهم؛ فالزمان هو المرجع للحُكم على جميع الأفعال، والزمان هو نبراس رؤية الصواب والخطأ.

فى دكّانٍ للمنسوجات فى شارع أمثاو، تتحدّث امرأةٌ مع صديقتها. لقد فقدت هذه المرأة عملها. لمدّة عشرين عاما، اشتغلتْ كاتبةً للضبط فى المحكمة، تدوِّن المرافعات. كانت تُعيل عائلتها. والآن، وهى مع ابنةٍ ما تزال فى المدرسة، وزوجٍ يمضى ساعتين فى المرحاض كلَّ صباح، تُطرَد من عملها. ذاتَ صباح، جاءتها مديرتُها، وهى امرأةٌ غريبة متبرِّجة بكثيرٍ من زيوت الوجه، وأَمَرَتْها بإزالة كلِّ شىء من مكتبها قبل يوم الغد.

تستمع صديقتها إليها فى الدكان بهدوء ، تطوى غطاء المنضدة الذى اشترته بعناية، تُزيل نُسالةً من سترةِ المرأة التى فقدتْ عملها. تتَّفق الصديقتان على اللقاء لتناول الشاى فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى. الساعة العاشرة. سبع عشرة ساعة وثلاث وخمسين دقيقة من هذه اللحظة. تبتسم المرأة التى فقدت عملها، لأوّل مرّة منذ أيام. فى فكرها تتصوَّر الساعة الحائطية فى مطبخها، وهى تدقّ كلَّ ثانيةٍ من الآن حتّى الساعة العاشرة غدا، بدون انقطاع، وبدون تردُّد. وتتزامن معها ساعةٌ حائطيةٌ مماثلة فى منزل صديقتها. وفى الساعة العاشرة إلا ثلثا من صباح الغد، سترتدى المرأة وشاحها، وتلبس قفازها وسترتها، وتمشى إلى (شفلوية) مارّةً بجسر (نيدج)، وتواصل سيرها فى شارع البريد حتّى صالة الشاى. وفى الجهة الأُخرى من المدينة، وفى الساعة العاشرة إلا ربعا ستغادر صديقتها منزلها فى شارع زيخهاوس، وتتوجّه إلى المكان نفسه. وفى الساعة العاشرة ستلتقيان. ستلتقيان فى الساعة العاشرة.

إنَّ العالَم الذى يكون فيه الزمان مطلقا هو عالم سلوى ومواساة، لأنَّه فى حين لا يمكن التنبُّؤ بتحرُّكات الناس، فإنَّ حركة الزمان يمكن التنبُّؤ بها. وفى حين يمكن التشكيك

فى الناس، فإنَّ الزمان لا يمكن التشكيك فيه. وفى حين يُطيل الناسُ التأمُّلَ، فإنَّ الزمان يمضى قُدُما دون الالتفات إلى الخلف؛ ففى المقاهى، وفى البنايات الحكومية، وفى القوارب فى بحيرة جنيف، ينظر الناس إلى ساعاتهم، ويلجأون إلى الزمان. ويعرف كلُّ فرد أنَّ اللحظة التى وُلِد فيها، واللحظة التى دَرَج فيها خطوته الأُولى، ولحظة حبِّه الأوَّل، واللَّحظة التى ودَّع فيها والديه، كلَّها مسجَّلة فى مكانٍ ما.

٣ أيّار/ مايو ١٩٠٥

تصوّرْ عالَما يكون فيه قانون (السبب والنتيجة) غريبَ الأطوار. أحيانا يتقدّم الأوّل على الثانى، وأحيانا الثانى على الأوّل أو ربّما يقع السبب دائما فى الماضى على حين تقع النتيجة فى المستقبل، ولكنّ المستقبل والماضى متلازمان.

ثمّة مشهدٌ يلفت الانتباه على شُرفةٍ فى شارع بوند: نهر الآره تحت الشُّرفة وجبال الألب البرنيز فوقها. يقف رجلٌ، فى هذه اللحظة، على الشرفة ليُفرِغَ جيوبه وهو شارد الذهن ويبكى. فقد تخلّى عنه أصدقاؤه بدون سبب. فلم يعُد أحدٌ يزوره، ولا يلتقى معه أحدٌ على عشاءٍ أو كأسِ جعة فى حانة، ولا أحد يدعوه إلى بيته. خلال عشرين عاما، كان الصديق المثالى لأصدقائه، كريما مهتمّا بهم، لطيف الكلام، ومحِبّا. ما الذى يمكن أن يكون قد حدث؟ وبعد أسبوع من تلك اللحظة على الشرفة، يأخذ نفس الرجل فى التصرُّف بصفاقة، ويسىء إلى الجميع، ويرتدى ملابس كريهة الرائحة، ويصبح بخيلا فى إنفاق المال، ولا يسمح لأحدٍ بالمجىء إلى شقّته فى شارع لوبن. أيُّهما السبب وأيُّهما النتيجة، أيُّهما المستقبل وأيُّهما الماضى؟

فى زوريخ، تمّتِ المصادقة فى المجلس التشريعى، مؤخّرا، على قوانينَ صارمةٍ. فقد تمّ منع بيع الأسلحة للناس. وأُخضِعَت البنوك والبيوت التجارية للتدقيق. ووجبَ على جميع زوّار المدينة، سواء من دخلوها بالمركَب فى نهر(ليمات) أو بالقطار على خطِّ (سلناو)، أن يخضعوا للتفتيش عن البضائع المُهرَّبة. وجرت مضاعفةُ أفراد الدفاع المدنى. وبعد شهرٍ من اتخاذ هذه الإجراءات الصارمة، اجتاحت زوريخ موجةٌ من أسوأ الجرائم فى التاريخ؛ ففى وضح النهار، أُغتيل أُناسٌ فى وسط ميدان (واين)، وسُرِقتْ لوحاتٌ فنّية من متحف كونستهاوس، وشُرِبت الخمرة على مقاعد محطة مونستر. أليست هذه الأعمال الإجرامية

فى غير موضعها من الزمان؟ أو ربّما القوانين الجديدة هى فعلٌ وليست ردّ فعل؟

تجلس امرأةٌ فى مقتبل العمر قربَ نافورةٍ فى حديقة النبات. فهى تأتى إلى هنا كلّ يوم أحد لتشمّ البنفسج الأبيض، والورد المسكى الرائحة، والقرنفل الفاتح الحمرة. فجأةً، يحلّق قلبها، ويحمرُّ خداها، وتتحرّك بلهفة، وتغمرها السعادة بلا سبب. وبعد أيام تلتقى بشابٍ وتقع فى غرامه. أليس الحدثان مرتبطَيْن؟ ولكن بأىّ رباطٍ غريب؟ وبأىّ تحوّلٍ فى الزمان؟ وبأىّ منطقٍ معكوس.

فى هذا العالم اللاسببى، يصبح العلماء لا حول لهم ولا قوة. فتوقُّعاتهم تمسى فى عِداد المتجاوز. وتصير معادلاتهم تبريرات، ومنطقهم لا منطق. ويتحوّل العلماء إلى متهوِّرين، ويدمدمون مثل مقامرين لا يستطيعون الكفّ عن الرهان. يغدو العلماء مجرّد مهرِّجين، لا لأنّهم ليسوا عقلاء، بل لأنّ الأكوان غير عقلانية. أو ربّما ليس لأنّ الأكوان غير عقلانية، ولكن لأنّ العلماء عقلانيون. مَن يستطيع الجزم بأىٍّ منهما، فى عالم لاسببى؟

فى هذا العالَم الفنانون مبتهجون. بصورةٍ غير متوقّعة، تكون لوحاتهم، وموسيقاهم، ورواياتهم بهيجة. فهم يفرحون لأحداثٍ لم تكُن متوقَّعة ووقائع ارتجاعية لا تفسير لها.

لقد تعلّم معظم الناس كيف يعيشون فى اللحظة الراهنة. ويجادل بعضهم قائلا إذا لم يكُن للماضى تأثيرٌ مؤكّدٌ على الحاضر، فلا حاجة لنا بالتركيز على الماضى. وإذا كان للحاضر تأثيرٌ قليل على المستقبل، فلا ضرورة لدراسة أفعال الحاضر من حيث نتيجتُها. الأحرى بنا أن نحكُم على كلّ فعلٍ بنفسه، لأنّه يشكّل جزيرةً معزولة فى الزمان. فأفراد الأُسرة، يواسون عمّهم المحتضِر ليس بسبب إرث محتمل، ولكن لأنّهم يحبّونه فى لحظة الاحتضار تلك. والموظّفون يحصلون على الوظيفة، لا بسبب سيرتهم وخبراتهم الماضية، ولكن بفضل سرعة بديهتهم

فى المقابلة. والمستخدَمون الذين يُسىء رؤساؤهم معاملتَهم، يردّون كلَّ إساءة بمثلها، دون خوفٍ على مستقبلهم. إنَّه عالَمٌ تتحكّم فيه النزوات. إنَّه عالمٌ تكون فيه كلُّ كلمةٍ منطوقة تتحدّث عن تلك اللحظة، وكلُّ نظرة أُلقيت لها معنىً واحد، وكلُّ لمسة لا ماضى لها ولا مستقبل، وكلُّ قُبلةٍ هى قُبلةٌ مباشرةٌ بنتُ لحظتها.

٤ أيّار/ مايو ١٩٠٥

الوقت مساء؛ زوجان سويسريان وزوجان إنجليزيان، يجلسون إلى طاولتهم المعتادة فى مطعم فندق سان ميرزان فى مدينة سان موريتس. فهم يلتقون هنا سنويًا خلال شهر حزيران/ يونيو من كلّ عام، لتمضية الوقت معا، وأخذ قسط من الراحة. الرجلان وسيمان وهما يرتديان ربطة العنقَ السوداء وحزام الخصر، والمرأتان جميلتان بفستان المساء. يمشى النادل عبر القاعة الخشبيةِ الأرضية لتلقّى طلباتهم.

تقول المرأة التى تضع أنشوطة حريرية مطرّزة فى شعرها:

ـ «أظنُّ أنّ الجوّ سيصبح رائقا غدا. وهذا سيُريحنا.»

يهزّ الآخرون رؤوسهم موافقين.

ـ «تبدو المسابح ألطف عندما يكون الجوُّ مشمِسا، مع أنّى أفترض أنّ ذلك لا يهمّ.»

يقول الأدميرال وهو يغمز لزوجته:

ـ «فى سباق الخيل فى دُبلن، ربح الجواد المسمى «ذو الجرى الخفيف» أربعة إلى واحد فى دبلن. كنتُ سأراهن عليه لو كان لدى المال.»

فيقول الرجل الآخر:

ـ «أعطيك خمسة إلى واحد إذا ربحتَ الرهان.»

تقطع المرأتان خبز العشاء، تضعان فيه شيئا من الزبدة، وتضعان سكينتيهما بعناية إلى جانب صحن الزبدة. تظلُّ عيون الرجليْن على مدخل المطعم.

تقول المرأة ذات أنشوطة الشعر المطرّزة:

ـ «يعجبنى تطريز مناديل المائدة.»

وتأخذ منديلها وتفتحه، ثمّ تطويه مرّة أُخرى.

تقول المرأة الأخرى وهى تبتسم:

ـ «تقولين ذلك كلّ عام، يا جوزفين.»

يصل العشاء، يتعشون هذه الليلة بسرطان البحر، والهليون، وشرائح اللحم المشوى، والنبيذ الأبيض.

تقول المرأة ذات أنشوطة الشعرِ المطرَّزة وهى تنظر إلى زوجها:

ـ «كيف تجد طعامك؟»

ـ «رائع. وأنتِ؟»

ـ «متبّل أكثر من اللازم. مثل الأسبوع الماضى»

ـ «وأنتَ، أدميرال، كيف تجد شرائح اللحم المشوى؟»

قال الأدميرال مسرورا:

ـ «لم أرفض أبدا ضلع لحم بقرى.»

قال الرجل الآخر:

ـ «يبدو أنَّكَ لم تتردَّد على أسواق اللحوم والأطعمة، فوزنك لم يزِدْ كيلوغراما واحدا منذ العام الماضى، بل خلال السنوات العشر الماضية.»

قال الأدميرال وهو يغمز لزوجته:

ـ «أنتَ لا تستطيع ملاحظة ذلك، ولكنّها تستطيع.»

قالت زوجة الأدميرال:

ـ «قد أكون مخطئة، ولكن يبدو لى أنَّ الغرف هذا العام يتخلَّلها تيارُ هواء أقوى من قبل.»

هزَّ الآخرون رؤوسهم موافقين وواصلوا تناول سرطان البحر وشرائح اللحم المشوى.

فاستأنفتْ كلامها قائلةً:

ـ «أنام دائما أفضل فى الغرف الباردة، ولكن إذا تخلّلها تيار هوائى، فإنّى أستيقظ بالسعال.»

قالت المرأة الأُخرى:

ـ «ضعى الملاءة فوق رأسك.»

قالت زوجة الأدميرال نعم، ولكنّها بدتْ محتارة. كرَّرتِ المرأة الأُخرى قولها:

ـ «ضعى رأسك تحت الملاءة، وسوف لا يزعجك تيار الهواء. يحدث لى هذا دائما فى غرندلوالْد. فهناك شبّاك بالقرب من فراشى. أستطيع تركه مفتوحا، إذا وضعتُ الملاءة فوق أنفى. فهذا يبعد الهواء البارد عنى.»

تُحرّك المرأة ذات أنشوطة الشعرِ المطرّزة كرسيَّها وتُفرِد ساقيْها تحت الطاولة.

تصل القهوة. يذهب الرجلان إلى غرفة التدخين. وتذهب المرأتان إلى الأُرجوحة الخشبية الكائنة فى الشرفة الكبيرة خارج قاعة المطعم.

يسأل الأدميرال:

ـ «كيف حال تجارتك منذ العام الماضى؟»

ـ «لا بأس.»

ـ «والأطفال؟»

ـ «كبروا سنةً واحدة.»

وفى الشرفة، تتأرجح المرأتان وتحدِّقان فى الظلام.

الأمر نفسه يجرى فى كلِّ فندق، وفى كلِّ بيت، وفى كلِّ بلدة. لأنَّ الزمان فى هذا العالم يمرّ بالتأكيد، ولكن القليل يحدث فيه. يحدث القليلُ من عامٍ إلى عام، كما أن القليل يحدث من شهر إلى شهر، ومن يومٍ إلى يوم. فإذا كان الزمان ومرور الحوادث هما نفس الشىء، فإنَّ الزمان يتحرّك ببطءٍ شديد. وإذا كان الزمان ومرور الحوادث ليسا نفس الشىء، فإنَّ الناس فقط هم الذين يتحرّكون ببطءٍ شديد. وإذا لم يكُن للمرء أىُّ طموحٍ فى هذا العالم، فإنّه سيعانى كثيرا دون أن يُدرِك ذلك. أمّا إذا كانت للمرء مطامح، فإنّه سيعانى كثيرا وهو يدرك ذلك، ولكن ببطءٍ شديد.

فاصلة

أينشتاين وبيسو يتمشّيان على مهل فى شارع شبيشر فى المساء. إنّه وقتٌ هادئ من أوقات النهار. فأصحاب الدكاكين يُنزلون مظلات محلاتهم، ويُخرِجون درّاجاتهم. ومن شباكٍ فى الطابق الثانى، تنادى أمٌّ ابنتَها طالبةً منها العودة إلى البيت لإعداد طعام العشاء.

كان أينشتاين يشرح لصديقه بيسو لماذا يريد أن يُلِمّ بمعرفة الزمان. ولكنّه لا يقول شيئا عن أحلامه. وسرعان ما يصلان منزل بيسو. فى بعض الأحيان، يبقى أينشتاين هناك لتناول طعام العشاء، ويتوجّب على زوجته ميلفا أن تأتى لتصطحبه معها، وهما يحملان طفلهما. وعادةً ما يحدث ذلك عندما يكون أينشتاين مشغولَ البال بمشروعٍ جديد، كما هو الحال الآن، فطوال العشاء كان يهزُّ ساقه تحت الطاولة. فأينشتاين ليس رفيقا جيدا فى أثناء العشاء.

يميل أينشتاين نحو بيسو، الذى هو قصير القامة كذلك، ويقول:

ـ «أريد أن أفهم الزمان، لأنّنى أريد أن أقترب من الأحد الصمد.»

يهزّ بيسو رأسه موافقا. ولكن ثمّة مشكلات يشير إليها بيسو. أوّلها أنّ الأحد الصمد ليس مهتمّا بالاقتراب من مخلوقاته، سواء أكانت ذكيّة أم لا. وثانيا، ليس من الواضح أنّ المعرفة هى الاقتراب. وأخيرا، قد يكون هذا المشروع المتعلّق بالزمان، أكبر من أن يضطلع به شابٌ فى السادسة والعشرين من عمره.

وبالمقابل، فإنّ بيسو يعتقد أنّ صديقه قد يكون قادرا على فعل أىّ شىء. فقد أتمّ أينشتاين أطروحته للدكتوراه هذا العام، وأنجز بحثا عن الفوتون (وحدة طاقة ضوئية تساوى الكم)، وبحثا آخر عن الحركة البراونية. وفى حقيقة الأمر، فإنّ المشروع الحالى بدأ بوصفه بحثا فى الكهربائية والمغناطيسية، إذ أعلن أينشتاين

فجأةً أنَّ هذا البحث يتطلّب إعادة النظر في مفهوم الزمان. وبيسو منذهلٌ لطموح أينشتاين.

لوهلةٍ، يترك بيسو أينشتاين وحيدا مع أفكاره. ويتساءل عمّا طهته زوجته آنا للعشاء، ويلقى نظرة على شارعٍ جانبيٍّ، حيث يلمع قاربٌ فضيُّ اللون فى ضوء الشمس الغاربة على نهر الآره. وفيما يتمشّى الرجلان، تُحدِث خطواتهما طقطقةً واهيةً على أرضيّةِ الشارع المرصوفة بالحصى. وهما يعرفان أحدهما الآخر منذ أيام التلمذة فى مدينة زوريخ.

يقول بيسو:

ـ «وصلتنى رسالةٌ من أخى فى روما. سيأتى لزيارتنا ويمكث معنا مدّةَ شهر. زوجتى آنا تحبه، لأنه يثنى دائما على قِوامها.»

يبتسم أينشتاين وهو شارد الذهن؛ فيواصل بيسو كلامه قائلا:

ـ «لن أستطيع أن أراك بعد العمل فى أثناء إقامةِ أخى معنا. هل ستكون على ما يرام؟»

يسأل أينشتاين:

ـ «ماذا؟»

يكرِّر بيسو كلامه قائلا:

ـ «لن أستطيع أن أراكَ كثيرا فى أثناء وجود أخى معنا. هل ستكون على ما يرام وحدك؟»

ـ «بالتأكيد. لا تقلق عليَّ.»

منذ أن عرفه بيسو، وأينشتاين مُكْتَفٍ بذاته. فقد كانت عائلته كثيرة التنقل أثناء طفولته. وهو متزوجٌ مثل بيسو، ولكنّه قلّما يذهب مع زوجته إلى أيِّ مكان. وحتى فى المنزل، كثيرا ما ينسلّ من الفراش فى منتصف الليل تاركا ميلفا وحدها، ليذهب إلى المطبخ، حيث يجرى عمليات حسابية تستغرق صفحات طويلة من المعادلات، التى يُطلِع عليها بيسو فى اليوم التالى فى المكتب.

ينظر بيسو إلى صديقه بدافع حبِّ الاستطلاع، بسبب انعزاليته، وانطوائه، وشغفه بالاقتراب، فهى صفات تبدو غريبة.

٨ أيّار/ مايو ١٩٠٥

سينتهي العالم في السادس والعشرين من شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٠٧. وكلُّ فرد يعرف ذلك.

في بيرن، الوضع كما في جميع المدن والبلدات تماما. قبل عامٍ واحدٍ من النهاية، تغلق المدارس أبوابها. لماذا التعلُّم من أجلِ المستقبل، إذا كان المستقبل قصيرا جدا؟ وراح الأطفال الذين سُرّوا بانتهاء الدروس إلى الأبد، يلعبون لعبة الغمضية (الاستغماية) في أروقة شارع كرام، ويجرون في شارع الآر، ويلقون الأحجار في النهر، وينفقون نقودهم في شراء حلوى النعناع ومشروب عرق السوس. وآباؤهم يتركونهم يفعلون ما يشاءون.

قبل شهرٍ واحدٍ من النهاية، أغلقت المحلاتُ التجاريةُ أبوابَها. وأوقفت المحاكم إجراءاتها القضائية، ولفَّ الصمتُ بناية البريد والبرق الاتحادية في شارع شبيشر. وكذلك، معمل الساعات في شارع لاوبن، والطاحونة وراء جسر نيدغ. ما الحاجة إلى التجارة والصناعة، ولم يتبقَ إلا وقتٌ ضئيل؟

وفي المقاهي المفتوحة المطلّة على شارع أمثاو، يجلس الناس ويحتسون القهوة ويتحدّثون ببساطة عن حياتهم. شعورٌ بالتحرُّر يملأ الجو. ففي هذه اللحظة، مثلا، امرأةٌ ذات عينيْن سوداويْن، تتحدّث مع أُمِّها عن الوقت القصير الذي أمضياه معا في أثناء طفولتها، عندما كانت أُمُّها تشتغل خيّاطة. والآن تخطّط الأُمّ وابنتها للقيام برحلةٍ إلى بحيرة لوسيرن. ستحقّقان انسجامَ حياتيْن في الوقت القصير المتبقي. وعلى طاولةٍ أُخرى، ثمّة رجلٌ يُخبِر صديقا له عن ذلك المراقِب المقيت الذي غالبا ما يمارس الجنس مع زوجة ذلك الرجل في غرفة الملابس في الإدارة بعد ساعات الدوام، ويهدِّد بطرد الرجل من عمله إذا سبَّب هو أو زوجته أيّة مشاكل. ولكن ما الذي يخشاه الآن؟ لقد صفّى حسابه

مع المراقب وتصالح مع زوجته. ونظرا لأنّه تخلّص من ذلك العبء أخيرا، فإنّه يمدِّد ساقيه ويترك عينيْه تجولان فوق جبال الألب.

فى المخبز الكائن فى السوق، يضع الخباز ذو الأصابع الغليظة، العجينَ فى الفرن ويغنّى؛ ففى هذه الأيام، يتكلّم الناس معه بلطفٍ عندما يطلبون خبزهم. يبتسمون ويدفعون الثمن فى الحال، لأنَّ النقود تفقد قيمتها. إنّهم يدردشون عن نزهاتٍ فى فرايبورغ، ويمضون الوقت فى الاستماع إلى قصص أطفالهم، وفى التمشّى لوقت طويل بعد الظهر. لا يبدو أنّهم يحفلون بنهاية العالم القريبة، لأنَّ كلَّ فردٍ سيشترك فى مواجهة المصير نفسه. فعالمٌ لمدَّة شهرٍ واحد، عالمٌ تتحقّق فيه المساواة.

وقبل يومٍ واحدٍ من النهاية، تضجُّ الشوارع بالضحك. فالجيران الذين لم يتحدّثوا مع بعضهم أبدا، يحييَ أحدهم الآخر كأصدقاء، ويخلعون ملابسهم، ويستحمّون فى مياه النافورات. وآخرون يغطسون فى نهر الآره. وبعد أن يسبحوا حتّى الإعياء، يستلقون على العشب الكثيف على طوال النهر وينشدون الأشعار. ثمّة محامٍ بارز وكاتبٌ بسيط فى البريد لم يلتقيا من قبلُ قطّ، راحا يتمشّيان يدا بيد فى حديقة النبات، ويبتسمان لنباتات بخور مريم وزهور النجمة، ويناقشان الفنَّ والألوان. ماذا تهمّ مراكزهم السابقة؟ إنّهما متساويان فى عالمٍ أَمَده يومٌ واحد.

وفى ظلالِ شارعٍ جانبىٍّ متفرِّعٍ من شارع (آربرغ)، يتكئ رجلٌ وامرأةٌ على حائط، يشربان البيرة، ويأكلان شرائح اللحم المدخَّن. وبعد ذلك ستأخذه إلى شقّتها. إنّها متزوجة بشخصٍ آخر، ولكن لسنواتٍ كانت ترغب فى هذا الرجل، وستُشبع رغباتها فى هذا اليوم الأخير من العالم.

ويُسرع أفراد قلائل الخطى فى الشوارع، وهم يفعلون الخير، محاولين تصحيح الأخطاء التى اقترفوها فى الماضى. وكانت ابتساماتهم الابتسامات الوحيدة غير الطبيعية.

وقبل دقيقةٍ واحدةٍ من نهاية العالم، تجمهر الجميع فى ساحة متحف كونست، رجالٌ ونساءٌ وأطفالٌ شكّلوا دائرةً عملاقة وهم يتماسكون بالأيدى. لا أحد يتحرّك، لا أحد يتكلّم. كان الصمت مطبقا تماما بحيث يستطيع كلُّ شخص أن يسمع دقاتِ قلبِ الشخص الذى على يمينه أو على يساره. إنّها الدقيقة الأخيرة فى هذا العالم. فى هذا الصمت المطلق، تمسك زهرة من زهور الجنطايانا بالضوء الساقط على الجانب السفلى من وريقاتها، تتوهّج للحظة، ثمّ تتفسّخ متلاشيةً بين الزهور الأُخرى. وخلف المتحف، ترتعش الأوراقُ الإبريةُ الشكل لشجرةٍ أَرزية حين يسرى النسيم عبر الشجرة. ووراء ذلك فى الغابة، يعكس نهر الآره شعاع الشمس، ويحنى الضوء مع كلِّ موجة تترقرق على سطحه. وإلى الشرق، ينتصب برج كنيسة القديس فانسان عاليا فى السماء، أحمرَ وهشًا، وهيكلُه الصخريُّ رقيقٌ دقيقٌ مثل عروقِ ورقةِ نبات. وفى الأعلى، هنالك جبال الألب مغطّاة بالثلج، ويمتزج عليها الأبيض والأُرجوانى، وهى متسعة وصامتة. وتطفو غيمةٌ فى السماء. ويرفرف عصفور. ولا أحد يتكلّم.

وفى الثوانى الأخيرة، كان الجميع يمسك بأيدى بعضهم كما لو كانوا قد قفزوا من قمة جبل توباز. واقتربت النهاية مثل الاقتراب من الأرض. ويندفع الهواء البارد، وتصبح الأجساد لا وزن لها. ويتثاءب الأفق لأميال عديدة. وفى الأسفل ينفلت بساط الثلج الشاسع أقرب فأقرب ليغلّف هذه الدائرة من الحمرة والحياة.

١٠ أيّار/ مايو ١٩٠٥

فى هذا المساء، وللحظةٍ وجيزة، تستكين الشمس فى جوفٍ ثلجىٍّ فى جبال الألب، ثلج نارىّ الملمس. تنبعث خيوط أشعتها الطويلة من الجبال، عبر البحيرة الساكنة، لتُلقى بظلالٍ على البلدة تحتها.

نظرا لاعتباراتٍ عديدة، تُعدُّ هذه البلدةُ بلدةً واحدةً متكاملة؛ تحدّها بلُطفٍ أشجارُ الصنوبر ، والأرز، والسنديان، من الشمال والغرب، فى حين تنتشر فى الأعالى أزهارُ السوسن النارية، وأزهارُ الجنطيانا الأرجوانية، وأزهار الألب الحمائمية الشكل. وفى المراعى القريبة من البلدة، ترعى المواشى لإنتاج الزبدة، والجبن، والشوكولاتة. وثمّة معملٌ للمنسوجات صغيرٌ يصنع الحرير، والأشرطة، والملابس القطنية. ويقرع جرسُ كنيسةٍ. وتملأ رائحة لحم البقر المدخّن شوارع البلدة وطرقاتها.

وعند تدقيق النظر، فإنّها بلدةٌ مؤلّفةٌ من أجزاء متعدِّدة. أَحد الأحياء يعيش فى القرن الخامس عشر. وهنا، تتّصل طوابق المنازل الصخرية بسلالم خارجية وأروقة. فى حين أنّ الجملونات العلوية فى المنازل متشقِّقة ومفتوحة للريح. وتنمو الطحالب بين صخور السطوح. وقسمٌ آخر من هذه القرية هو صورة للقرن الثامن عشر، حيث يكسو القرميدُ الأحمرُ السطوحَ المؤلّفة من خطوطٍ مستقيمة منه. وثمّة كنيسةٌ ذات نوافذ بيضوية وطلّة صخرية. وقسم آخر من البلدة يمثِّل الحاضر، بأروقته المرصوفة على طول كلّ شارع، والسياجات المعدنية على الشرفات، والواجهات المصنوعة من الحجر الرملى الأملس؛ فكلُّ قسمٍ من أقسام القرية مرتبطٌ بزمانٍ مختلفٍ.

فى هذا المساء، فى هذه اللحظات القليلة، والشمس تستكين فى جوفٍ ثلجىٍّ فى جبال الألب، فى وسع المرء أن يجلس على شاطئ البحيرة ويتأمّل فى نسيج الزمان.

من المفروض أن يكون الزمان ناعما أو خشنا، شوكيا أو حريريا، صلبا أو لينا. ولكن فى هذا العالم، وُجِد نسيجُ الزمان لزجا. فأقسام من البلدات تصبح لصيقةً بلحظةٍ مُعيَّنة من التاريخ ولا تنفكّ منها. وبالمثل كذلك، ثمّة أفرادٌ من الناس، يلتصقون بنقطةٍ معيَّنة من حياتهم ولا يتحرّرون منها.

ففى هذه اللحظة، هنالك رجلٌ فى أحد المنازل الكائنة تحت الجبال، يتحدّث مع صديقٍ له. إنّه يتكلّم عن أيامِ دراسته فى المدرسة الثانوية. شهاداته بالتفوّق فى الرياضيّات والتاريخ معلّقةٌ على الجدران، والميداليات والكؤوس الرياضية التى حازها تُشغِل الرفوف. وهنا، على طاولةٍ، صورتُه بوصفه رئيسَ فريق المبارزة، يحيط به شبّانٌ ذهبوا بعد ذلك إلى الجامعة، وأصبحوا مهندسين ورجال بنوك، وتزوّجوا. وهناك فى المَلبس، ما تزال ملابسه منذ عشرين سنة، وبذلة المبارزة، وسروالٌ من نسيج التويد صار الآن ضيقا على خصره. والصديق الذى كان يحاول لسنواتٍ أن يقدّمه إلى أصدقاء آخرين، يهزّ رأسه موافقا مجاملة، ويجاهد صامتا أن يتنفّس فى تلك الغرفة الصغيرة.

وفى منزلٍ آخر، يجلس رجلٌ وحيدٌ إلى طاولته المعدّة لشخصيْن. فقبل عشر سنوات، جلس هذا الرجل هناك مقابل والده، ولم يستطِع أن يقول له إنّه يحبّه. وها هو يبحث فى سنوات طفولته عن لحظاتٍ حميمة، ويتذكّر الأمسيات حين جلس ذلك الرجل الصامت وحيدا مع كتبه، ولم يكُن قادرا على التصريح بحبّه له، لم يستطِع أن يقول إنّه يحبُّه. والطاولة معدّة بصحنيْن، وكأسيْن، وشوكتيْن، كما كانت فى آخر ليلة اجتمعا فيها. يشرع الرجل فى الأكل، لا يستطيع أن يأكل، يبكى بطريقة لا يمكنه التحكُم فيها. إنّه لم يقُل أبدا إنّه كان يحبه.

وفى منزلٍ آخر، تحدِّق امرأة بشغف إلى صورةِ ابنها، عندما كان شابا، وباسما، وذكيا. وهى تكتب إليه رسائل على عنوانٍ لم يعُد فيه منذ وقتٍ طويل، وتتصوَّر أجوبته السعيدة.

وعندما يطرق ابنُها بابها، فإنّها لا تجيب. وعندما يناديها ولدُها بوجهه الطلق وعينيْه النديّتيْن، من خلال الشباك طالبا بعض المال، فإنّها لا تسمعه. وعندما يترك لها ولدُها، وهو يتعثّر بخطواته، رسائلَ يتوسّل فيها أن يراها، فإنّها ترمى بالرسائل دون أن تفتحها. وعندما يقف ولدُها فى الليل خارج منزلها، فإنّها تأوى إلى فراشها مبكّرة. وفى الصباح تنظر إلى صورته، وتكتب رسائل حنونا، وتبعث بها إلى عنوانٍ قديم لم يعُد فيه منذ أمَدٍ طويل.

ثمّة عانسٌ ترى وجهَ الشابِّ الذى أحبته فى مرآةِ غرفةِ نومها، وتراه على سقف المخبز، وعلى سطح البحيرة، وفى السماء.

مأساة هذا العالم أنّه لا يوجد أحدٌ سعيد، سواء أكان لصيقا بزمان الألم أو بزمان الفرح. مأساة هذا العالم أنَّ كلَّ فردٍ فيه وحيد. ذلك لأنَّ حياةً فى الماضى لا يمكن اقتسامها مع الحاضر. فكلُّ شخص يلتصق بزمان ما، يلتصق به وحيدا.

١١ أيّار/ مايو ١٩٠٥

فى أثناء المشى فى ممرّ السوق، يرى المرءُ منظرا عجيبا. فقد انتظمت ثمار الكرز فى أكشاك الفواكه فى خطوطٍ مستقيمة، ورُصّت القبّعات فى دكان القبّعات النسائية بطريقة مضبوطة، ورُتِّبت الأزهار على الشرفات فى تناسقٍ تام، وليس هناك من فتاتِ خبزٍ على أرضية المخبز، ولا حليب أُهرِق على أرضية الملبنة. لا شىء ليس فى محلّه.

وعندما تغادر جماعةٌ مرِحةٌ المطعم، تغدو الطاولات أنظفَ مما كانت عليه. وعندما تهبّ الريح بلطفٍ فى الشارع، يُكنَس الشارع ليصبح نظيفا، فالتراب والغبار يُنقَلان إلى أطراف البلدة. وعندما ترتطم أمواج المياه بالشاطئ، يعيد الشاطئُ بناء نفسه. وحينما تتساقط أوراق الأشجار، تصطفُّ هذه الأوراق فى خطٍّ واحد مثل الطيور على شكل V. وعندما تشكّل الغيوم وجوها، تبقى الوجوه عالقةً فى السماء. وعندما ينفث غليونٌ ما الدخانَ فى الغرفة، يندفع السخام إلى زاوية الغرفة، تاركا الهواء نقيًا. وتتعرّض شرفاتُ المنازلِ المطليّةُ للريح والمطر، فتُصبِح أكثرَ إشراقا بمرور الوقت. ويجعل صوتُ الرعد المزهريّة المهشّمة تلتئم بذاتها، ويجعل أجزاءها المتشظّية تقفز لتأخذ مواضعها المضبوطة حيث تنسجم وتلتحم. وعندما تمرّ عربةٌ محمّلةٌ بالقرفة، فإنّ رائحتها تتكاثف وتتصاعد، ولا تتلاشى مع الوقت.

هل تبدو هذه الأحداث غريبة؟

فى هذا العالم، يجلبُ مرورُ الزمانِ نظاما متزايدا. فالنظام هو قانون الطبيعة، وهو التوجُّه العالمى، والمسار الكونى. لو أنّ الزمان سهمٌ، فإن ذلك السهم سيتّجه نحو النظام. والمستقبل نسقٌ، وتنظيمٌ، واتحادٌ، وتلاحمٌ؛ أمّا الماضى فهو العشوائية، والارتباك، والتحلّل، والتلاشى.

ويرى الفلاسفة أنّه بدون النزوع نحو النظام، فإنّ الزمان

يفقد معناه، بحيث لا يمكن تمييز المستقبل من الماضى. وسيكون تعاقب الأحداث تماما مثل مَشاهدَ أُخذِت عشوائيا من ألف رواية. وسيكون التاريخ غامضا، مثل ضباب يتجمَّع ببطءٍ فى أعالى الأشجار عند المساء.

فى مثل هذا العالَم، سيستلقى الناس فى أَسرَّتهم فى منازلهم غير المرتبة، منتظرين أن تقوم قِوى الطبيعة بإزالة الغبار من إطارات شبابيكهم، وترتيب أحذيتهم فى خزاناتهم. وسيذهب أصحاب الصفقات التى لم تتم تسويتها، بنزهةٍ، فى حين تُرتِّب مذكِّراتهم تلقائيا، وتنظِّم مواعيدهم، وتُسَوّى حساباتهم. وستُلقى أصابع أحمر الشفاه، والفرشاة، والرسائل فى حقيبة اليد، على أمل أنها ستُرتِّب نفسها فيها ذاتيّا. ولن تحتاج الحدائق إلى تشذيبٍ أبدا، ولا الأعشاب الضارة إلى الاجتثاث. والملابس الملقاة على الأرض فى المساء، ستُنضَّد على الكراسى فى الصباح. والجوارب المفقودة ستعود إلى الظهور.

إن يزُرْ المرءُ مدينةً فى فصل الربيع، يَرَ مشهدا عجيبا آخر. ففى الربيع، يسأم السكانُ النظامَ فى حياتهم. فى الربيع، يرمى الناس بالمُهمَلات فى منازلهم بغضب. ويكنسون الأوساخ إليها، ويحطمون الكراسى، ويهشّمون الشبابيك. وفى شارع (الآربغر) أو فى أى شارعٍ سكنىٍّ آخر فى أثناء فصل الربيع، يسمع المرء أصوات تكسير الزجاج، والصياح، والصراخ، والضحك. فى الربيع، يلتقى الناس فى مواعيد لم ترتَّب مسبقا، ويحرقون دفاتر مواعيدهم، ويرمون ساعاتهم بعيدا، ويشربون طوال الليل. ويستمرُّ هذا التهتُّك الهستيرى حتّى فصل الصيف، حين يستعيد الناس صوابهم ويعودون إلى النظام.

١٤ أيّار/ مايو ١٩٠٥

هناك مكانٌ يقف فيه الزمان ساكنا. تبقى فيه قطراتُ الماء عالقةً فى الهواء بلا حراك. وتطفو رقّاصات الساعات فى منتصف تأرجحها. وترفع الكلاب أخطامها فى عواء صامت. ويتجمّد المارّة على الشوارع المتربة، وتتصلّب سيقانهم كما لو كانت مقيّدة بأسلاك. وتعلق روائح التمر، والمانجو، والكزبرة، والكمون، فى الفضاء.

وفيما يقترب مسافرٌ من هذا المكان، من أىِّ اتّجاه كان، فإنَّ حركته تمسى بطيئةً أكثر فأكثر؛ وتتباعد دقّاتُ قلبه أكثر فأكثر، ويتباطأ تنفُّسه، وتنخفض درجة حرارته، وتتلاشى أفكاره، حتّى يصل المركز الميّت ويتوقّف. لأنَّ هذا المكان هو مركز الزمان. ومن هذا المكان يتحرّك الزمان إلى الخارج فى دوائرَ متّحدةِ المركز؛ بسكونٍ فى المركز، ثمّ تتصاعد سرعتُه تدريجيا ويتّسع قُطر الدوائر.

مَن الذى يحجُّ إلى مركز الزمان؟ آباء مع الأطفال، وعشّاق.

وهكذا، ففى المكان الذى يتوقّف فيه الزمان ساكنا، يرى المرءُ الآباءَ وهم يتشبثون بأطفالهم، بعناقٍ متجمّدٍ ولا يتركونهم. والابنة الصغيرة الجميلة ذات العينيْن الزرقاويْن والشعر الأشقر، لن تتوقّف عن إبداء ابتسامتها التى تبتسمها الآن، ولن تفقد هذا الألقَ الوردىَّ على خدّيها إلى الأبد، ولن تكبر متجعدة الوجه، ولن ينالها التعب، ولن تُصاب بجراح، ولن تنسى ما علّمها أبواها، ولن تفكّر بأفكار لا يَعلَمُ بها والداها، ولن تعرف الشرَّ مُطلقاً، ولن تقول لوالديها إنّها لا تحبهما، ولن تغادر غرفتها التى تطلّ على المحيط، ولن تتوقّف عن معانقة والديها، كما تفعل الآن.

وفى المكان الذى يتوقّف فيه الزمان ساكنا، يرى المرءُ العشاقَ يتبادلون القُبل فى ظلال البنايات فى عناق متجمّد لا ينفكُّ أبدا. فالمحبوب لا يُزيل ذراعيه من حيث هما الآن أبدا،

ولن يعيد السوار التذكارى أبدا، ولن يرحل بعيدا عن حبيبته أبدا، ولن يضع نفسه فى خطر فى تضحية ذاتية أبدا، ولن يتوانى عن إظهار حبِّه أبدا، ولن يغار أبدا، ولن يقع فى غرامِ امرأة أُخرى أبدا، ولن يفقد هوى هذه اللحظة من الزمان أبدا.

ينبغى على المرء أن يعتبر أنّ هذه التماثيل مضاءة بأكثر الأضواء الحمراء خفوتا، لأنَّ الضوء يتلاشى إلى اللاشىء تقريبا فى مركز الزمان، وتتباطأ ذبذباته حتّى تصبح مجرّد أصداء فى وديان شاسعة، وتنخفض شدّته حتى تغدو مثل وهج يراعة باهت.

أولئك الذين ليسوا فى المركز الميِّت تماما، يتحرّكون فعلا، ولكن بسرعةِ نهرٍ متجمِّد. فتمشيط الشعر بفرشاة قد يستغرق سنة كاملة، وقبلة واحدة قد تأخذ ألف سنة. وفى أثناء ردُّ ابتسامة بابتسامة، تمرّ الفصول فى العالم الخارجى. وفى غضون ضمّة طفل، تُبنى جسور وترتفع. وفى أثناء التلفُّظ بكلمة الوداع، تتهاوى مُدُنٌ وتُنسى.

وهؤلاء الذين يعودون إلى العالم الخارجى... الأطفال يكبرون بسرعة، وينسون عناق والديهم الذى استغرق قرونا طويلة، ولكنه بالنسبة إليهم لم يستغرق سوى ثوان. ويصبح الأطفال رجالا بالغين، يعيشون بعيدا عن آبائهم، ويسكنون فى منازلَ خاصّةٍ بهم، ويتعلَّمون أساليبهم الذاتية، ويعانون آلامهم، ويشيخون. ويلعن الأطفال آباءَهم لأنَّهم كانوا يحاولون الاحتفاظ بهم إلى الأبد، ويلعنون الزمان الذى تسبَّب فى بَشرتهم المتجعدة وأصواتهم المبحوحة. فهؤلاء، الآن، أطفالٌ كبار يحاولون إيقاف الزمان، ولكن فى زمان آخر. فهم يريدون أن يجمّدوا أطفالهم فى مركز الزمان.

والعشّاق الذين يعودون، يجدون أحبابهم قد رحلوا منذ وقت طويل. وبعد ذلك كلّه، فقد مضى عمرٌ كامل، وهم يتحرّكون فى عالم لا يعرفونه. والعشاق الذين يعودون لا يزالون يتعانقون فى ظلال البنايات، ولكنّ عناقهم الآن يبدو

فارغا ووحيدا. وسرعان ما ينسون الوعود التى استغرقت قرونا، ولكنها بالنسبة لهم لم تدم إلا ثوانى؛ وتنتابهم الغيرة حتّى وهم بين أغراب، ويسيئون القول مع بعضهم، ويشيخون وحيدين فى عالم لا يعرفونه.

يقول بعضهم إنّ من الأفضل عدم الاقتراب من مركز الزمان. فالحياة سفينة من الأحزان، ولكن من الرائع أن يعيش الإنسان حياته، وبدون الزمان لا وجود للحياة. وآخرون لا يوافقونهم على ذلك. بل يفضّلون أن يتمتعوا بأبديةٍ من الرضا، حتى لو كانت تلك الأبدية ثابتة ومتجمدة، مثل فراشةٍ مُثبتةٍ فى صندوق.

١٥ أيّار/ مايو ١٩٠٥

تصوَّر عالما لا وجود فيه للزمان. صورٌ فقط.

طفلةٌ على الشاطئ، مسحورةٌ برؤيتها المحيط أوّل مرّة. امرأةٌ واقفةٌ على شرفةٍ فى الفجر، بشعرها المسدل، ومنامتها الحريرية الفضفاضة، وقدميْها الحافيتيْن، وشفتيْها. والطّاق المقوّس فى الرواق بالقرب من نافورة زاهرنغر فى شارع كرام، من صخرٍ رملىٍّ وحديد. رجلٌ جالسٌ فى مكتبه الهادئ، حاملا صورة امرأة، ونظرةٌ أليمة على وجهه. عُقابٌ معلّقٌ فى السماء، جناحاه مبسوطان، أشعةُ الشمس نافذةٌ من خلال ريشه. فتىً جالسٌ فى قاعةٍ فارغة، خافق القلب، كما لو أنّه على خشبةِ المسرح. آثار أقدام على الثلج فى جزيرة شتوية. قاربٌ على الماء فى الليل، وأضواؤه خافتةٌ على البُعد، مثل نجمةٍ حمراءَ صغيرةٍ فى السماء الداكنة. صندوق حبوب طبّية مقفل. ورقةُ شجرةٍ على الأرض فى الخريف، حمراءَ، ذهبيةٌ داكنة، رقيقة. امرأةٌ جاثيةٌ بين الشجيرات، متربصة بالقرب من منزل زوجها الذى هجرها، والذى لا بدّ من الحديث معه. غبارٌ على عتبة النافذة. نضدٌ من الفلفل فى السوق، أصفر وأخضر وأحمر. (ماترهورن)، القمةُ الوعرة المكلّلة بالبياض والمندفعةُ فى السماء الصافيةِ الزرقة، والوادى الأخضر، وأكواخٌ من خشب. عينُ إبرةٍ. ندىً على أوراق الأشجار، بلورىٌّ، متلألئ. أمٌّ فى سريرها، باكيةٌ، ورائحةُ الريحان فى الهواء. طفلٌ على دراجة فى حدائق (كلاينه شانزه)، مبتسمٌ ابتسامة طوال الحياة. برجُ صلاة عالٍ مثمّن الأضلاع، شرفةٌ مفتوحةٌ، مهيبةٌ، محاطةٌ بالأيدى. بخارٌ متصاعدٌ من بحيرةٍ فى الصباح الباكر. دُرجٌ مفتوح. صديقان فى مقهى، وضوء المصباح على وجهِ أحدِ الصديقيْن، والآخر فى الظلّ. قطةٌ فى حالةِ مراقبةِ حشرةٍ على الشبّاك. امرأةٌ فى مقتبل العمر على مصطبةٍ منهمكة فى قراءةِ رسالة، دموع الفرح فى عينيْها الخضراويْن.

حَقلٌ شاسعٌ، مُحدَّدٌ بخطوطٍ من أشجارِ الأرز والراتنجيات. ضوءُ الشمس فى خطوطٍ طويلة خلال الشباك فى الأصيل. شجيرةٌ ضخمةٌ ساقطة، جذورها منتشرةٌ فى الهواء، ولحاؤها وأغصانها ما زالت خضراء. بياضُ زورقٍ شراعىٍّ، والريح خلفه، شراعاه منبسطان مثل جناحى طيرٍ أبيضَ عملاق. والدٌ وولده وحدهما فى مطعم، الوالد حزينٌ محملقٌ فى منديل الطاولة. نافذةٌ بيضاويةُ الشكل، مشرعةٌ على حقول التبن، وعربة خشبية، وبقرات، خضراء وأرجوانية فى ضوء المساء. قنينةٌ مكسورةٌ على الأرض، وسائلٌ بنّىٌّ فى الشقوق، وامرأةٌ بعينَيْن حمراويْن. رجلٌ مسنٌّ فى المطبخ، منهمكٌ فى إعداد الفطور لحفيدته، والولد سارح النظر خارج النافذة حيث مصطبةٌ بيضاءُ الطلاء. كتابٌ مهمَلٌ على طاولةٍ بجانب مصباحٍ خافتِ الضوء. الزَّبَد على الماء فى أثناء انكسار الموجة، مدفوعٌ بالريح. امرأةٌ مسجاةٌ على الأريكة بشعرها الطويل، وهى ممسكةٌ بيدِ رجلٍ لا لقاء معه بعد اليوم. قطارٌ مع سيّارات حمراء، على جسرٍ صخرىٍّ عظيم، له أقواسٌ رائعة، وتحته نهرٌ، ونقاطٌ صغيرة هى بيوتٌ على البُعد. ذراتُ غبارٍ طافيةٌ فى أشعّة الشمس المتسرِّبة من الشبّاك. جلدٌ رقيقٌ فى وسطِ رقبة، رقيقٌ لدرجةٍ كافيةٍ لرؤيةِ عروقِ الدم تحته. رجلٌ وامرأةٌ عاريان ملتفّان ببعضهما. ظلالٌ زرقاءُ لأشجارٍ فى ضوء البدر. قمةُ جبلٍ مع ريح عاتية، والوادى يحيط بها من جميع الجهات، ساندويتشات لحمٍ بقرىٍّ وجبنة. طفلٌ مغمضُ العينيْن جراء صفعةٍ من أبيه، وشفتا الأب مضمومتان من غضب، والطفلُ غيرُ مدرك السبب. وجهٌ غريب فى المرآة، وشعرٌ أشيب عند الصدغيْن. شابٌ حاملٌ هاتفا، فزِعٌ من المسموع. صورةٌ فوتغرافيةٌ عائلية، الأبوان شابان ومرتاحان، والأطفال مرتدون بدلاتهم وأربطة العنق ومبتسمون. ضوءٌ باهتٌ بعيد من خلال أيكةِ أشجار. شمسٌ حمراءُ عند الغروب. قشرةُ بيضةٍ، بيضاءُ، هشةٌ، غير مكسورة. قبّعةٌ زرقاءُ مبتلةٌ على الشاطئ. زهورٌ

مقطوفةٌ طافيةٌ على النهرِ تحتَ الجسرِ، مع قصرٍ منيف. شعرٌ أحمرُ لحبيبٍ، ولهانَ، لعوبٍ، واعد. أوراقٌ أرجوانيةٌ لزهرةِ السوسنِ، في يدِ فتاة. غرفةٌ ذاتُ جدران أربعة، ونافذتيْن، وسريران، وطاولة، ومصباح، وشخصان ذوا وجهيْن متورديْن، ودموع. القبلة الأولى. كواكبُ معلّقةٌ في الفضاء، محيطاتٌ، صمت. فراشُ ماءٍ على الشباك. حبلٌ مفتول. فرشاةٌ صفراء.

٢٠ أيّار/ مايو ١٩٠٥

نظرةٌ خاطفةٌ على الحوانيت المزدحمة فى شارع شبيتل تسرد القصة. يسير المتسوّقون من حانوتٍ إلى آخر بسرعة، ليكتشفوا ما الذى يبيعه كلُّ دكان. هنا التبغ، ولكن أين ذرور الخردل؟ هنا السكّر، ولكن أين السمك؟ هنا حليب الماعز، ولكن أين الزعفران؟ هؤلاء ليسوا سيّاحا فى أوّل زيارة لهم لمدينة بيرن. هؤلاء مواطنو بيرن. لا رجل فى مقدوره أن يتذكّر أنّه اشترى الشوكولاته قبل يومَيْن فى دكانٍ اسمه فرناندیز فى رقم ١٧ فى هذا الشارع. أو اللحم فى دكان هوف للأطعمة المعلّبة فى رقم ٣٦. كلُّ دكانٍ ينبغى العثور عليه واكتشاف اختصاصه من جديد. كثيرون يسيرون وبأيديهم الخرائط التى توجّههم من رواقٍ إلى آخر فى المدينة التى يسكنونها طوال حياتهم، فى الشوارع التى مشوا فيها سنوات عديدة. وكثيرون يسيرون مع دفاتر ملاحظاتهم، ليسجّلوا ما تعلّموه، ما دام فى ذهنهم وهلةً قصيرة. لأنّ الناس فى هذا العالَم لا ذاكرة لهم.

وعندما يحين وقت العودة إلى المنزل فى آخر النهار، ينظر كلُّ فردٍ منهم فى دفتر عناوينه ليعرف أين يسكن. فالجزّار الذى قام بتقطيعٍ غير موفق فى يومه هذا من القصابة، يكتشف أنّ منزله هو فى رقم ٢٩ فى شارع (ناجل). وبائع الأسهم والسندات الذى ساعدته ذاكرته قصيرة الأجل فى أحوال السوق على القيام بإستثماراتٍ ناجحة، يقرأ فى دفتر عناوينه أنه يسكن الآن فى رقم ٨٩ فى شارع (بوند). وعندما يصل كلُّ رجلٍ إلى منزله، يجد امرأةً وأطفالا ينتظرونه عند الباب، فيقدّم نفسه إليهم، ويساعد فى إعداد وجبة العشاء، ويقرأ القصص لأطفاله. وبالمثل، فإنّ كلّ امرأةٍ تعود من عملها، تجد زوجا، وأطفالا، وأرائك، ومصابيح، وجدران مكسوةً بالورق، وأوانى منقوشة. وفى آخر الليل، لا يتريّث الزوج وزوجته فى البقاء على الطاولة لمناقشة

فعاليات النهار، أو مدرسة أطفالهم، أو حساب البنك. بدلا من ذلك يبتسم كلٌ منهما للآخر، ويحسّان بالدم الحارّ، والوجع بين الساقين، تماما كما التقيا أوّل مرّة قبل خمسة عشر عاما. يجدان غرفة النوم، يتعثّران عند الصور العائلية التى لا يتعرّفان عليها، ويمضيان الليل فى شهوة الغرام. لأنّ العادة والذاكرة فقط هما اللتان تقتلان الرغبة الجسدية. فبدون الذاكرة، تصبح كلٌ ليلة هى الليلة الأُولى، وكلٌ صباح هو الصباح الأوّل، وكلُ قُبلة وكلٌ لمسة هما أوّل قبلة وأوّل لمسة.

عالم بلا ذاكرة هو عالم الحاضر. فالماضى يوجد فقط فى الكتب، فى الوثائق. ولكى يعرف كلُ فردٍ نفسه، عليه أن يحمل معه كتابَ حياته الملىء بتاريخِ حياته. وبقراءة صفحاته يوميا، يستطيع أن يعرف من جديد هُويَّةَ والديه، وما إذا كان قد وُلِد فى وسطٍ رفيعٍ أو وضيع، وما إذا كان مجتهدا أو كسولا فى المدرسة، وما إذا كان قد أنجز أىّ شىءٍ فى حياته. وبدون كتابِ حياته، يمسى الفرد مجرَّد لقطةٍ فوتوغرافية، صورةٍ ذات بُعديْن، شبح. فى المقاهى المورقة فى (برنغاشلدة)، يسمع الإنسان صرخةً مرعوبةً يطلقها رجلٌ قرأ لتوِّه أنّه قتل رجلا آخر ذات مرَّةٍ ، أو يسمع آهةً من امرأةٍ اكتشفت فى تلك اللحظة أنّ رفيقها كان أميرا، أو يسمع تبجُّحا مفاجئا من امرأةٍ علمتْ للتوِّ أنَّها حصلتْ على مرتبةِ الشرف العليا فى جامعتها قبل عشر سنوات. بعضهم يمضى ساعات الغسق على طاولاتهم وهم يقرأون من كتاب الحياة؛ وبعضهم الآخر، وهم فى حالة هياج، يملئون صفحاته الإضافية بأحداث اليوم.

وبمرور الوقت، يتضخَّم كتابُ حياةِ كلِّ شخص، حتّى يصبح من غير الممكن قراءته أجمعه. ثمّ يأتى الاختيار؛ الرجال والنساء المُسنّون قد يقرأون الصفحات الأولى ليعرفوا أنفسهم أيامَ شبابهم؛ أو قد يقرأون النهاية، ليعرفوا أنفسهم فى السنوات الأخيرة.

وبعضهم توقَّف عن القراءة بالمرَّة. فهم قد تخلُّوا عن الماضى. لقد قرَّروا أنه لا يهمُّ إذا كانوا بالأمس أغنياء أو فقراء، علماء أو جهلاء، عظماء أو وضعاء، عشاقا أو ذوى قلوبٍ خالية من الحبِّ، لا يهمُّ ذلك أكثر من أهمِّية أن تتغلغل ريحٌ ناعمةٌ فى شعر رأسهم. فمثل هؤلاء الناس ينظرون مباشرةً فى عينك ويشدُّون على يدك بقوَّة. ومثل هؤلاء الناس يتخطَّون شبابهم بخطواتٍ واسعةٍ سريعة. مثل هؤلاء الناس قد تعلَّموا كيف يعيشون فى عالمٍ بلا ذاكرة.

٢٢ أيّار/ مايو١٩٠٥

الفجر. ضبابٌ أرجوانيٌّ يطفو فى المدينة، محمولا على أنفاس النهر. الشمس تنتظر وراء جسر نيدغ، وترمى خيوطَ أشعّتها المحمرّة الطويلة، عبر شارع كرام، إلى الساعة العملاقة التى تقيس الزمان، فتضىء الجوانب السفلية للشرفات. أصواتُ الصباح تنساب خلال الشوارع مثل رائحة الخبز. طفلةٌ تستيقظ وتنادى أُمّها. ظلّة دكانٍ تصدر صريرا خافتا عندما يصل بائع القبّعات النسائية إلى دكّانه فى السوق. ماكينةٌ تبعث طنينا على النهر. امرأتان تتحدثان بهدوء تحت رواق.

وفى حين تذوب المدينة فى الضباب والليل، يرى المرء مشهدا غريبا. هنا جسرٌ قديم لم ينتهِ بناؤه. وهناك دارٌ أُزيلت من أساسها. وهنا، شارع ينحرف إلى الشرق دون أىّ سبب واضح. وهناك مصرفٌ يستقرُّ فى وسط سوق الخضروات. والشبابيك السفلى الملوّنة فى كنيسة القديس فانسان تصوِّر موضوعات دينية، أما شبابيكها العليا فتنقلب فجأةً إلى صورةٍ لجبالِ الألب فى الربيع. يسير رجلٌ بسرعةٍ فى اتجاه بناية الحكومة الاتحادية، يتوقّف فجأة، يضع يديه على رأسه، يصرخ بهياج، يستدير، ثُمَّ يُسرِع فى الاتجاه المعاكس.

إنّه عالَمُ الخُطط المتقلّبة، الفرص المفاجئة، الرؤى غير المتوقعة. لأنَّ الزمان، فى هذا العالم، لا ينساب بصورةٍ مطّردة، وإنّما بصورةٍ متقطّعة؛ ونتيجةً لذلك، فالناس يتلقّون رؤًى متشنّجةً من المستقبل.

فعندما تتلقّى امرأةٌ رؤية مفاجئة عن مُستقرِّ ابنها فى المستقبل، فإنّها تنقل بيتها لتكون قريبةً منه. وعندما يرى بنّاءٌ مكانَ تجارةٍ رائجة فى المستقبل، فإنّه يلوى بعنفٍ مسار الطريق فى ذلك الاتجاه. وعندما ترمق فتاةٌ، بصورةٍ خاطفة، نفسَها وقد أصبحت بائعة زهور فى المستقبل، فإنّها تقرِّر عدم مواصلة

دراستها الجامعية. وعندما يتمكّن شابٌ من رؤيةِ المرأة التى سيتزوّجها فى المستقبل، فإنّه ينتظرها. وعندما يستطيع محامٍ رؤيةَ نفسه وهو يلبس جلبابَ قاضٍ فى مدينة زوريخ، فإنّه سيتخلّى عن عمله فى مدينة بيرن. وفى الحقيقة، أىُّ معنىً يبقى فى مواصلة الحاضر، عندما يرى المرءُ مستقبلَه؟

بالنسبة إلى أولئك الذين تحقّقت لهم الرؤيا، يصبح هذا العالَمُ عالمَ نجاحٍ مضمون. فثمّة مشاريعُ قليلةٌ بدأت ولا تتقدّم. وبعض الرحلات التى انطلقتْ لا تقود إلى المدينة المقصودة أصلا. وبعض مَن اكتسبنا صداقتهم، لن يكونوا أصدقاءنا فى المستقبل. وثمّة عواطفُ تُهدَر.

أمّا أولئك الذين لم تحصل لهم الرؤيا، فإنّ هذا عالمُ إرجاءٍ غير فعّال. كيف يستطيع المرء أن ينخرط فى جامعةٍ دون أن يعرف مهنته فى المستقبل؟ كيف يستطيع الفرد أن يفتح صيدليةً فى السوق، إذا كانت صيدليةٌ مماثلة فى شارع شباتل تدرّ ربحا أكبر؟ كيف يمكن لفتاة أن تمارس الجنس مع رجلٍ قد لا يبقى مُخلصا لها؟ فمثل هؤلاء الناس ينامون معظم أوقات النهار فى انتظار قدوم الرؤيا.

وهكذا، فى هذا العالم الذى تحصل فيه مشاهدُ خاطفةٌ من المستقبل، قليلا ما يُقدِم الناس على المغامرة. فأولئك الذين تمكّنوا من رؤية المستقبل لا يحتاجون إلى الإقدام على المغامرة، وأولئك الذين لمّا يروا المستقبل بعد، ينتظرون رؤاهم دون أيّة مغامرة.

قليلٌ هم الذين شاهدوا المستقبل ثمّ فعلوا كلّ ما فى استطاعتهم لدحضه وتغييره. يذهب رجلٌ إلى العمل فى حدائق المتحف فى بلدة نيوشاتل، بعد أن رأى نفسه محاميا فى بلدة لوتسيرن. ينطلق شابٌ فى رحلة عنيفة بقاربٍ شراعىٍّ مع والده، بعد أن تحقّقت له رؤيا بأنّ والده سيموت قريبا بأزمةٍ قلبية. وتسمح شابةٌ لنفسها أن تقع فى غرامِ رجلٍ، على الرغم

من أنها رأت أنَّها ستتزوَّج رجلا آخر. مثل هؤلاء الناس يقفون على شرفاتهم عند الغسق ويصرخون أنَّ المستقبل يمكن تغييره، وأن هنالك آلافا من المستقبلات الممكنة. وفى الوقت المناسب، يتذمَّر الحدائقى فى بلدة نيوشاتل من أَجره المتدنِّى، ويصبح محاميا فى بلدة لوتسيرن. ويموت الوالد بسبب قلبه، فيكره الابنُ نفسَه، لأنَّه لم يجعل والده يلزم الفراش للراحة. والشابة يهجرها عشيقها وتتزوّج رجلا آخر يتركها فى وحدتها مع الألم.

مَن الذى يصيب نجاحا فى هذا العالم ذى الزمان المتشنِّج؟ أولئك الذين رأوا المستقبل وعاشوا حياة واحدة فقط؟ أو أولئك الذين لم يروا المستقبل وينتظرون أن يعيشوا حياتهم؟ أو أولئك الذى رفضوا المستقبل ويعيشون حياتيْن؟!

٢٩ أيّار/ مايو ١٩٠٥

إذا اقتحم رجلٌ أو امرأةٌ هذا العالم، يتعيّن عليه أو عليها تفادى المنازل والبنايات. لأنّها جميعها فى حركة دائبة. فالدُّور والشقق، كلُّها مركّبة على عجلات، وتتجه مائلةً نحو ساحة المحطّة، وتتسابق فى الممرات الضيِّقة فى السوق، ويتصارخ سكّانها من نوافذ الطابق الثانى. ولا يبقى مكتب البريد فى شارع البريد، بل يطير مخترقا المدينة على سكّة، مثل قطار. ولا تبقى بناية الحكومة الاتّحادية ساكنة فى شارع الاتّحاد. فى كلِّ مكان، يطنُّ الهواء ويصطخب بصوت المحرِّكات والتنقُّلات. وعندما يخرج شخصٌ من باب منزله الأماميِّ عند بزوغ الشمس، ينطلق جريا، ليلتحق ببناية مكتبه، يصعد السلَّم ويهبط مسرعا، يعمل على مكتبه المتحرِّك فى دوائر، يهرول إلى منزله فى آخر النهار. لا أحدَ يجلس تحت شجرةٍ وفى يده كتاب، لا أحدَ يسترخي فى العشب الكثيف فى نواحى الريف. لا أحدَ ساكن.

لماذا هذا الإصرار على السرعة والتعلُّق بها؟ لأنَّ الزمان، فى هذا العالم، يمرّ ببطءٍ بالنسبة إلى أولئك الذين هم فى حركةٍ دائبة. ولهذا، فإنَّ كلّ فردٍ يتحرّك بسرعةٍ فائقة ليكسب الوقت.

لم يُلاحَظ أثرُ السرعة هذا حتى تمّ اختراع مُحرّك الاحتراق وبدايات النقل السريع؛ ففى ٨ أيلول/ سبتمبر ١٨٨٩، اصطحب السيد راندولف ويغ من أهالى مقاطعة سويرى فى بريطانيا، حماتَه إلى لندن بسرعةٍ فائقةٍ بسيارته الجديدة؛ وقد سُرَّ كثيرا عندما وصل فى غضون نصف الوقت المتوقَّع، فلم يكد يتجاذب أطراف الحديث معها حتى وصل؛ ولهذا قرّر أن يدرس هذه الظاهرة. وبعد أن نشر نتائج أبحاثه، لم يعُد أحدٌ يتحرّك ببطء.

ولمّا كان الوقت من ذهب، فإنَّ الاعتبارات المالية وحدَها هى التى تُملى على كلِّ بورصة، وكلِّ مصنع، وكلِّ حانوت، التحرُّكَ بأسرع ما يمكن، للتفوُّق على المنافسين. فمثل هذه البنايات

مزوَّدة بمحرِّكات دفعٍ عملاقة ولا تعرف الاستراحة أبدا. فمحرِّكاتها وأعمدتها المرفقية تصطخب بصوت أعلى من ذلك الصوت الذى يصدر من التجهيزات والناس الذين بداخلها.

وبالمثل، فإنَّ المنازل تُباع ليس فقط على أساس مساحتها وعمارتها، وإنَّما سرعتها كذلك. فكلَّما كانت حركة المنزل أسرع، أضحت دقَّات الساعة فى داخله أبطأ، والوقت المتاح لساكنيه أطول. واعتمادا على السرعة، فإنَّ الشخص الذى يقطن فى منزل سريع، يمكن أن يكسب عدَّة دقائق فى النهار الواحد أكثر من جيرانه. وهذا الهوس بالسرعة يستمرّ طوال الليل، حيث من الممكن أن يُفقَد أو يُكسَب وقتٌ ثمين فى أثناء النوم؛ ففى الليل تشتعل الشوارع بالمصابيح، لئلا تحدث اصطدامات بين المنازل المارة، وهى اصطدامات كارثية دائما. وفى الليل، يحلم الناس بالسرعة، بالشباب، بالنجاح.

فى هذا العالم ذى السرعة الفائقة، ثمَّة حقيقةٌ واحدة فقط تمَّ استيعابها ببطء. فبمنطق الحشو، يتبيَّن أنَّ الأثر الحركى نسبىٌّ تماما. لأنَّه عندما يمرّ شخصان فى الشارع، يرى كلٌّ واحدٍ منهما الآخرَ يتحرَّك، تماما كما يبصر رجلٌ مسافرٌ فى القطار، الأشجارَ من النافذة وهى تجرى مسرعة. وبالتالى، فعندما يمرّ رجلان فى الشارع، يرى كلُّ واحدٍ منهما وقتَ الآخر ينساب ببطء أكبر. هذه التبادلية تسبّب الجنون. وما يسبب الجنون أكثر، هو أنَّه كلَّما تحرَّك الجارُ بسرعةٍ أكبر وهو يمرّ بجاره، يبدو له جارُه وهو يتحرّك بسرعة أكبر.

وعندما بلغ الإحباط والجزع مبلغهما لدى الناس، كفَّ بعضهم عن النظر من النوافذ. وبإسدال الستائر، فإنّهم لن يعرفوا مدى السرعة التى يتحرَّكون بها، ومدى السرعة التى يتحرّك بها جيرانُهم ومنافسوهم، فهم ينهضون فى الصباح، يستحمون، يأكلون شرائح الخنزير الملفوفة بالخبز، يعملون فى مكاتبهم، يستمعون إلى الموسيقى، يتحدّثون مع أطفالهم،

ويعيشون عيشةً راضية.

ويجادل بعضهم فى أنَّ برج الساعة العملاقة فى شارع كرام هو وحده الذى يسجِّل الزمان الحقيقى، فهو الوحيد فى حالة سكون. فى حين يشير آخرون إلى أنّه حتّى الساعة العملاقة هى فى حركة، عندما يُنظَر إليها من نهر الآره أو من غيمةٍ مسافرةٍ فى الأعالى.

فاصلة

يجلس أينشتاين وبيسو فى مقهىً يطلّ على شارع أمثاو. الوقت منتصف النهار، وقد أقنع بيسو صديقه بمغادرةِ مكتبه ونيلِ قسطٍ من الراحة.

يقول بيسو:

ـ «أنتَ لا تبدو على ما يرام.»

يهزُّ أينشتاين كتفَيْه وهو مُحرَج تقريبا. وتمرُّ دقائق، أو ربَّما ثوانٍ فقط، ويقول أينشتاين:

ـ «ولكنّى أُحقِّق تقدُّما.»

يقول بيسو، وهو يتأمَّل بتوجُّسٍ الدوائرَ الداكنة تحت عينَى صديقه:

ـ «يمكننى إدراك ذلك.»

ومن الممكن كذلك أنَّ أينشتاين انقطع عن تناول الطعام. يتذكَّر بيسو عندما كان، هو نفسه، يبدو تماما مثل أينشتاين الآن، ولكن لسببٍ مختلف. حدث ذلك فى زوريخ. فقد تُوفّى والد بيسو بصورةٍ مفاجئةٍ وهو فى الأربعينيّات من عمره. وأحسَّ بيسو الذى لم يكُن على تفاهمٍ مع والده، بحزنٍ شديدٍ وشعورٍ بالذنب. وتوقَّفتْ دراساته. وقدْ دُهِش بيسو عندما قام أينشتاين باصطحابه آنذاك معه إلى منزله، واعتنى به مدَّةَ شهرٍ كامل.

يرى بيسو أينشتاين الآن، ويتمنّى لو أنّه يستطيع مساعدته. يبدو أينشتاين لبيسو بلا ألم. ولكنَّ الظاهر أنَّه ينسى ذاته والعالَم.

يقول أينشتاين مرَّةً أُخرى:

ـ «إنَّنى أُحقِّق تقدُّما. أَظنُّ أنَّ الأسرار ستتكشَّف. هل رأيتَ دراسة لورنتس التى تركتُها على مكتبكَ؟»

ـ «سيئة.»

ـ «نعم. سيئةٌ ومرتجلة. لا يمكن أن تكون صحيحة؛ فالتجارب

الكهرومغناطيسية تخبرنا بأشياءَ أساسيةٍ أكثر بكثير.»

يحكّ أينشتاين شاربه، ويأكل بنهمٍ البسكويتَ الذى على الطاولة.

يمرُّ بعض الوقت والرجلان صامتان. يضع بيسو أربعَ قطعٍ من السُّكَّر فى قهوته، فى حين يحدِّق أينشتاين فى جبال الألب البرنيز البعيدة، وهو بالكاد يراها من خلال الضباب. فى واقع الأمر، فإنَّ أينشتاين ينظر من خلال جبال الألب، إلى الفضاء. وهو يُصاب أحيانا بالصُّداع نتيجة تلك الرؤية البعيدة، وعندئذٍ يتوجَّب عليه أن يستلقى على أريكته المكسوة بغطاءٍ أخضر اللون، وعيناه مغمضتان.

يقول بيسو:

ـ «تودُّ زوجتى (آنة) أن تأتى أنتَ وزوجتك (ميلفة) لتناول طعام العشاء معنا الأسبوع القادم، ويمكنكما أن تجلبا الطفل، إذا اضطررتما لذلك.»

يهزُّ أينشتاين رأسه موافقا.

يتناول بيسو فنجان قهوةٍ آخر، ينظر إلى شابةٍ فى الطاولة المجاورة ويثنى كُمَّ قميصه. يبدو بيسو أشعثَ الشعر مثل أينشتاين، الذى يحدِّق إلى المجرّات فى هذا الوقت. بيسو قَلِقٌ حقًا على صديقه، على الرغم من أنّه سبق أن رآه على هذه الحال فى الماضى. لعلَّ طعام العشاء يسلّيه.

يقول بيسو:

ـ «ليلة السبت.»

يقول أينشتاين بصورةٍ مفاجئة:

ـ «أنا مشغول ليلة السبت. ولكن (ميلفة) و(هانز ألبرت) يمكنهما المجىء.»

يضحك بيسو ويقول:

ـ «ليلة السبت فى الساعة الثامنة.»

ويتساءل فى نفسه لماذا تزوّج صديقه أصلًا. ولكن أينشتاين

نفسه لا يستطيع تفسير ذلك. كان قد اعترف مرّةً لبيسو بأنّه كان يأمُل أن تتعهّد ميلفة بأَشغال المنزل، ولكنّ الأمر لم يجرِ على ذلك. فالفراش المبعثر، والملابس غير المكويّة، وأكوام الصحون غير المغسولة، بقيت على حالها كما كانت من قبل. بل ازدادت الأعمال بعد ميلاد الطفل.

يسأل بيسو:

ـ «ما رأيكَ بتطبيقات راسموسن؟»

ـ «القوّة الطاردة فى القنينة؟»

ـ «نعم.»

يقول أينشتاين:

ـ «سيتذبذب العمود كثيرا بحيث تنتفى فائدته. ولكنّ الفكرة ذكيّة. أعتقد أنّها ستعمل بإضافة شىءٍ من المرونة إلى تركيبها، بحيث يمكن التوصُّل إلى محورِ دورانٍ خاصٍّ بها.»

ويعرف بيسو معنى ذلك. إذ سيقوم أينشتاين نفسه بعملِ تصميمٍ جديد ويرسله إلى راسموسن من غير أن يطلب مقابلا ماديا ولا حتّى اعترافا بعمله. وغالبا ما لا يعرف المتلقّون المحظوظون لاقتراحات أينشتاين مَن الذى قام بمراجعة تطبيقاتِ براءةِ الاختراع التى تقدّموا بها. لا لأن أينشتاين لا يستمتع بالاعتراف. فقبل بضع سنين، عندما رأى عددَ مجلة «**حوليّات الفيزياء**» وهى تحمل دراسته الأولى، قام بتقليد ديكٍ مدة خمس دقائق كاملة.

٢ حزيران/ يونيو ١٩٠٥

التُقِطتْ خوخةٌ بُنيّةُ اللونِ مُتفسِّخةٌ من المزبلة، ووُضِعت على طاولة ليصبح لونها ورديا. تورّد لونها وتصلّبت، فحُمِلت فى كيسٍ وأعيدت إلى بائع الخضروات، وُضِعت على رف، أُزيلت ووضعت فى قفص، وأُعيدت إلى شجرةِ الخوخ ذات الأزهار الوردية. فى هذا العالم، يجرى الزمان بالمقلوب إلى الوراء.

امرأةٌ متهالكةٌ تجلسُ على كرسيٍّ وقلّما تتحرّك، وجهها أحمر منتفخ، وقد ذهب بصرُها تقريبا، وذهب سمعها، ويُحدِث تنفُّسُها صريرا خفيفا مثل حفيفِ سقوطِ أوراقِ الأشجار الميّتة على الصخور. تمرُّ السنوات. لا يزورها إلا القليل من الناس. وتدريجيًا تستعيد المرأةُ قوّتَها، تأكل أكثر، تختفى الخطوط العميقة من وجهها. تسمع أصواتا، وموسيقى. تتجمّع ظلالٌ مبهمة فى عينيها مكوِّنةً ضوءا، وخطوطَ طاولات وصورها، وكراسى، ووجوهَ أُناس. تقوم المرأة بنزهاتٍ من منزلها الصغير، فتذهب إلى السوق، وبين الحين والآخر تزور صديقةً لها، وتتناول الشاى فى المقاهى عندما يكون الطقس جيّدا. تأخذ إبرا وغزْلا من الجارور الأسفل فى صوان ملابسها وتشرع فى التطريز. تبتسم عندما يروق لها عملها. وذات يوم، يُحمَل زوجها بوجهه الأبيض إلى منزلها. وخلال ساعات يصبح خدّاه متورِّديْن، يقف محدودب الظهر، ثمّ يستقيم منتصبا، ويتحدّث إليها. ويصبح دارها بيتهما. يتناولان وجبات الطعام معا، يرويان النكات، ويضحكان. يقومان برحلاتٍ فى طول البلاد وعرضها، ويزوران الأصدقاء. يأخذ شعرها الأشيب فى الاسوداد مع لمعانٍ بنّى، ويكتسب صوتُها نبراتٍ جديدة. تذهب إلى حفلةٍ للمتقاعدين فى مدرسةٍ ثانوية، وتنخرط فى تدريس التاريخ. تحبُّ تلاميذها، وتتناقش معهم بعد انتهاء الدروس. تقرأ فى أثناء ساعة الغداء، وفى أثناء الليل. تلتقى بالأصدقاء وتتحاور معهم حول التاريخ

والأحداث الجارية. تساعد زوجها على إنجاز الحسابات في الصيدلية، تتمشّى بصحبته على سفوح الجبال، وتطارحه الغرام. تصبح بشرتُها ناعمةً، وشعرها طويلا وبنيًا، ونهداها بارزيْن. ترى زوجها لأوّلِ مرّةٍ في مكتبة الجامعة، وتبادله النظرات. تحضر الدروس، تتخرّج من المدرسة الثانوية، ويبكي والداها وأختها من الفرح. تسكن مع والديها. تمضي ساعات تتمشّى رفقة أمّها في الغابة القريبة من منزلهم، تساعد في غسل الصحون. تروي حكاياتٍ لأختها الصغيرة، وتقرأ لها كتابها في الليل قبل النوم. تصغرُ في العمر، تحبو، ترضع.

رجلٌ في منتصف العمر يسير من منصةٍ بقاعةٍ في استوكهولم وهو يحمل ميدالية. يصافح رئيس الأكاديمية السويدية للعلوم، يتلقّى جائزة نوبل للفيزياء، يستمع إلى خطابٍ بديع. يفكّر الرجل قليلا في الجائزة التي سينالها. تقفز أفكاره عشرين سنة إلى المستقبل، حيث سيعمل بمفرده في غرفةٍ صغيرة وليس معه سوى قلمٍ وورقة. سيعمل ليل نهار، ويجرّب بداياتٍ خاطئةً عديدة، يملأ سلّةَ المهملات بسلسلةٍ من المعادلات الفاشلة والاستنتاجات المنطقية غير الناجحة. ولكن، في بعض الأُمسيات، سيعود إلى مكتبه وهو مدرك أنّه تعلّم أشياء عن الطبيعة لم يعرفها أحدٌ من قبل قطّ، غامر في ولوج الغابة القاتمة وعثر على ضوء، وأمسك بأسرارٍ ثمينة. في تلك الأمسيات، سيخفق قلبه كما لو كان عاشقا. إن توقُّع تصاعد الدم في عروقه في الوقت الذي سيصبح فيه شابا غيرَ معروفٍ وغيرَ خائف من الخطأ، يسيطر عليه الآن وهو جالس على كرسيّه بالقاعة في استكهولم على مسافة بعيدة من الصوت الواهي لرئيس الأكاديمية وهو يعلن اسمه.

رجُلٌ يقف بجانبِ قبرِ صديقه، يرمي حفنةَ ترابٍ على التابوت، يشعر بمطر نيسان/ أبريل البارد على وجهه. ولكنّه لا يذرف الدموع. إنّه يتطلّع قُدما إلى ذلك اليوم الذي تستعيد

فيه رئتا صديقه قوّتهما، عندما يخرج صديقه من فراشه ضاحكا،
عندما يتناولان الجعة معا، وينطلقان فى رحلةٍ بقارب شراعى،
ويتحدّثان. إنّه لا يذرف الدموع. فهو ينتظر بشغفٍ يوما
مخصوصا يذكِّره بالمستقبل، عندما يتناول هو وصديقه أكلةً
خفيفةً على طاولةٍ خفيضة، عندما سَيَصِف مخاوفه من التقدُّم
فى الشيخوخة والعزلة، وسيهزُّ صديقه رأسه بلطفٍ موافقا،
عندما سيهبط المطر من على زجاج النافذة.

٣ حزيران/ يونيو ١٩٠٥

تصوَّرْ عالما يعيش فيه الناس يوما واحدا فقط. إمّا بالإسراع في معدّل ضربات القلب والتنفُّس، إمّا بأن تُضغَط مدّةُ الحياة كلُّها فى مدى دورةِ الأرض مرَّةً واحدة حول محورها، أو بإبطاءِ دوران الأرض إلى سرعةٍ منخفضة، بحيث تستغرق الدورة الكاملة مدّةَ الحياة البشرية برمّتها. فكلا التفسيرَيْن وارد. وفى كلِّ حالةٍ يشاهِد الرجل

أو المرأة شروقَ شمسٍ واحد، وغروبَ شمسٍ واحد.

فى هذا العالَم، لا أحدَ يعيش ليشاهد تغيُّر فصول السنة. فالشخص الذى يولَد فى شهر كانون الأول/ ديسمبر فى أحدِ البلدان الأوربيّة لن يرى أبدا الزهور الياقوتية، ولا الزنابق، ولا زهور النجمة، ولا نبات بخور مريم، ولا البرسية الألبية. ولن يرى أبدا أوراقَ شجرةِ القيقب وهى تتحوّل حمراءَ وذهبيَّة، ولن يسمع صوت الصرصار ولا زقزقة العصفور الشادى؛ فالذى يولَد فى كانون الأول/ ديسمبر، يعيش حياته باردةً. وبالمثل، فالمرأة التى تولَد فى تموز/ يوليو لن تحسّ أبدا بنُدفِ الثلج على خدّها، ولن ترى أبدا الصقيعَ البلورى على البحيرة المتجمِّدة، ولن تسمع أبدا أزيزَ الحذاء فى الثلج الطرى؛ فالمرأة التى تولَد فى تموز/ يوليو تعيش حياتها دافئةً؛ ولا تعرف شيئا عن تغيُّر الفصول إلا من خلال الكُتُب.

فى هذا العالم، تكون حياة الفرد محكومةً بالضوء؛ فالشخص الذى يولَد عند غروب الشمس، يمضى نصفَ حياته فى الليل، ويتعلّم الصناعات المنزليّة مثل الحياكة وصناعة الساعات، ويقرأ كثيرا، ويصير مثقّفا، ويأكل كثيرا جدا، ويخشى الظلام الشاسع خارج المنزل، ويألَف الظلال. أمّا الشخص الذى يولد عند بزوغ الشمس، فإنّه يتعلّم المهن التى تُمارَس خارج المنزل مثل الفِلاحة والبناء، ويغدو ذا بنيةٍ جسدية جيِّدة، ويتجنَّب الكُتُب

والمشروعات الفكرية، ويكون مَرِحا وواثقا من نفسه، ولا يخشى شيئا.

وكُلٌّ من أطفال الغروب والشروق يُصابون بالتخبُّط عندما يتغيّر الضوء؛ فعندما تشرِق الشمس، يُذهل أولئك الذى وِلدوا عند الغروب بسبب الظهور المفاجئ للأشجار والمحيطات والجبال، ويُعشى أبصارَهم ضوءُ النهار، ويعودون إلى منازلهم، ويسدلون ستائر نوافذهم، ويمضون بقيَّة حياتهم فى ضوء خافت. وعندما يحلُّ وقت الغروب، فإنَّ أولئك الذين وِلدوا عند الشروق، يحزنهم اختفاء الطيور من السماء، وتلاشى تدرّج اللون الأزرق فى البحر، وانعدام الحركات الأَخّاذة للغيوم. يُرهقهم تعلّم الصناعات المنزلية التى تجرى فى الظلام ويرفضونها، ويستلقون على الأرض وينظرون إلى الأعلى فى محاولةٍ مستميتةٍ لرؤية ما شاهدوه ذات مرَّة.

فى هذا العالم حيث لا تتجاوز مدّة الحياة يوما واحدا فقط، يترصَّد الناسُ الزمانَ مثلما تُجهِد القططُ نفسَها لسماع الأصوات الصادرة من الغرفة العلويَّة تحت السقف، إذْ لا وقت لإضاعته فى هذا العالم. فالميلاد، والدراسة، والعلاقات الغرامية، والزواج، والمهنة، والشيخوخة، يجب أن تلتئم جميعا فى غضون تحوّل شمسى واحد؛ تغيُّر ضوئى واحد. وعندما يمرُّ الناس فى الشارع، يلمسون قبعاتهم ويسرعون الخطو. وعندما يلتقى الناس فى المنازل، يسأل أحدهم الآخر عن الصحَّة ثمَّ ينصرفون إلى شؤونهم الخاصَّة. وعندما يجتمع الناس فى المقاهى، فإنَّهم يراقبون تحوّلَ الظلال بعصبيّة ولا يجلسون طويلا؛ فالوقت ثمينٌ للغاية. والحياةُ لحظةٌ واحدة فى فصل. الحياةُ تساقطُ ثلجٍ مرَّةً واحدة. الحياةُ ليست سوى يومٍ خريفىٍّ واحد. الحياة مجرَّد شفيرِ ظلٍّ سريعٍ واهٍ يتسرَّب فى أثناءِ إغلاقِ باب. الحياة حركةٌ خاطفةٌ لذراعيْن وساقيْن.

وحين تحلُّ الشيخوخة، سواء فى الضوء أو فى العتمة،

يكتشف المرءُ أنَّه لا يعرف أحداً؛ فلم يكُن ثمَّةَ وقتٍ لذلك. فقد رحل الوالدان فى منتصف النهار أو فى منتصف الليل، وانتقل الإخوان والأخوات إلى مُدُنٍ بعيدة، للقبض على فرصٍ عابرة. وتغيَّر الأصدقاءُ مع تغيُّر زاويةِ سقوط الشمس. وجميع المنازل، والمُدُن، والمهن، والأحبّة، قد أُعدَّت ليتمَّ تأطير الحياة فى غضونَ يومٍ واحد؛ فالمرء فى شيخوخته لا يعرف أحداً. إنَّه يتحدّث إلى الناس ولكنَّه لا يعرفهم. فحياته مبعثرةٌ فى شظايا أحاديثٍ، ينساها شرذمةٌ من الناس. حياته مقسَّمة على حوادث متسارعة، لا يشاهدها إلا القليل. فهو يجلس إلى منضدته فى غرفة النوم، يستمع إلى صوت الماء المتدفِّق فى الحمام، ويتساءل ما إذا كان أيٌّ شيءٍ موجوداً خارج عَقله! وهل كان عناق أُمِّه له قد وقع فعلاً؟ وهل كانت منافسته المضحكة مع صديقه فى المدرسة قد وقعت فعلاً؟ وهل كانت تلك الرعشة الأولى لمطارحة الغرام قد وقعت فعلاً؟ وهل كان الحبيب موجوداً؟ وأين هم الآن؟ أين هم الآن، فيما هو يجلس إلى منضدته فى غرفة النوم وهو يستمع إلى صوت الماء الجارى فى الحمام، ويشاهد تغيُّر الضوء بصورةٍ غامضة.

٥ حزيران/ يونيو ١٩٠٥

مِن وصْفِ الموقع ومرأى الأنهار والأشجار، والبنايات والناس، يبدو الأمر عاديا.

فنهرُ الآره ينحنى إلى الشرق، وهو مرصّعٌ بالقوارب المحمّلة بالبطاطا والشوندر. وأشجارُ صنوبرِ الأرولا تزيِّن سفوح جبال الألب، وأغصان الأشجار المثقَلة بثمارها المخروطية الشكل، تتَّجه إلى الأعلى مثل أذرع شمعدان. وفى شارع الآر، تستقر البنايات ذات الطوابق الثلاثة والسطوح المزيَّنة بالقرميد الأحمر، والشبابيك المقوَّسة،

وهى تطلُّ بهدوءٍ على النهر. ويلوِّح أصحاب الدكاكين فى السوق بأيديهم للمارة، عارضين المناديل، والساعات البديعة، والطماطم، والخبز، والشَّمار. وتنساب رائحةُ لحم البقر المدخَّن فى الشارع. رجلٌ وامرأةٌ يقفان فى شرفتهما الصغيرة فى شارع كرام، يتجادلان، ويبتسمان فى أثناء الجدال. فتاةٌ صغيرةٌ تسير ببطءٍ فى الحديقة فى (كلاينه شانزه). والباب المصنوع من الخشب الأحمر لمكتب البريد ينفتح وينغلق، ينفتح وينغلق. ويعوى كلب.

ولكنَّ هذا المشهد يبدو مختلفا من شخصٍ إلى آخر. فمثلا امرأةٌ تجلس على ضفاف نهر الآره، ترى القوارب تمرّ بسرعةٍ فائقة، كما لو كانت تتحرّك على مزالج عبر الثلج. وبالنسبة إلى امرأة أُخرى، تبدو القوارب بطيئة، بالكاد تجتاز منحنى النهر خلال وقت العصر كلِّه. أمّا الرجل الذى يقف فى شارع الآره وهو ينظر إلى النهر، فإنّه يكتشف أنَّ القوارب تسير أوَّلا إلى الأمام، ثمَّ ترتدُّ إلى الوراء.

وتتكرَّر هذه الاختلافات فى مكانٍ آخر؛ ففى هذه اللحظة يسير صيدلىٌّ عائدا إلى صيدليَّته فى شارع كوشه، بعد أن تناول طعام الغداء. إليك الصورة التى يراها: امرأتان تمرّان

به مهرولتَيْن، وهما تحرّكان أيديهما بعنف، وتتكلّمان بسرعةٍ لدرجة أنّه لا يفهم ما تقولان. ويجرى محامٍ فى الشارع ليصل إلى موعدٍ له فى مكانٍ ما، ورأسه يستدير بشدّة إلى هذه الجهة وإلى تلك الجهة، مثل رأس حيوانٍ صغير. وتنطلق كرة رماها طفلٌ من الشرفة فى الهواء مثل رصاصة، مثل بقعة بالكاد يمكن رؤيتها. ولاح ساكنو البناية رقم ٨٢ من خلال نافذتهم، وهم يطيرون فى المنزل من غرفة إلى أُخرى، ثمّ يجلسون لحظةً، ويلتهمون وجبتهم فى غضون دقيقةٍ واحدة، ويختفون، ويظهرون. أمّا الغيوم، فتتجمع فى الأعالى، وتتفرّق، وتتجمّع مرّةً أُخرى، بسرعة الشهيق والزفير المتعاقبَيْن.

وعلى الجانب الآخر من الشارع، يشاهد الخبّازُ المشهدَ نفسه. يلاحظ أنّ امرأتين تتنزّهان على مهلٍ فى الشارع، تتوقّفان لتتحدثا إلى المحامى، ثمّ تستأنفان السير. فيذهب المحامى إلى شقّةٍ فى البناية رقم ٨٢، يجلس إلى مائدةٍ لتناول طعام الغداء، ويمشى إلى شباكٍ فى الطابق الأوّل حيث يمسك بِكُرةٍ رماها طفلٌ من الشارع.

وبالنسبة إلى شخصٍ ثالث يقف تحت عمود النور فى شارع كوتشر، فإنّ الأحداث لا حركة لها بتاتا: امرأتان، محامٍ، كرةٌ، طفلٌ، ثلاثةُ قوارب، جزءٌ داخلى فى شقّة؛ كلُّها تُرى مثل رسومٍ فى ضوء الصيف المُشرق.

هذا مماثلٌ لأىِّ سلسلةٍ من الأحداث، فى هذا العالم حيث يكون الزمان حاسةً من الحواس مثل البصر والذوق، قد تغدو سلسلة الأحداث سريعةً وقد تغدو بطيئة، ضعيفةً أو شديدة، مالحةً أو حلوة، سببيةً أو بلا سبب، مرتَّبةً أو اعتباطية؛ وذلك طبقا لخلفيّة الناظِر وتاريخه الماضى. يجلس فلاسفةٌ فى مقهىً بشارع أمثاو، ويتجادلون حول ما إذا كان الزمان يوجد حقيقةً خارج الإدراك البشرى؟ مَن الذى يستطيع القول ما إذا كانت حادثةٌ تقع بسرعةٍ أم ببطء، بسببٍ أم بلا سبب، فى الماضى

أم فى المستقبل؟ مَن الذى يستطيع القول ما إذا كانت الأحداث تقع على الإطلاق؟ يجلس الفلاسفة وعيونهم نصف مفتَّحة، ويقارنون نظرياتهم الجمالية المتعلِّقة بالزمان.

يولد قليلٌ من الناس بلا إحساسٍ بالزمان. ونتيجةً لذلك، فإنَّ إحساسهم بالمكان يتصاعد إلى درجةٍ موجعة. فهم يستلقون فى عشبٍ كثيف، ويسألهم الشعراء والرسامون من جميع أنحاء العالم ويتضرَّعون إليهم، إلى هؤلاء الذين أصابهم الصمم تجاه الزمان، أن يصفوا لهم بالضبط مواقعَ الأشجار فى الربيع، وشكلَ الثلوج على جبال الألب، وزاويةَ سقوط أشعة الشمس على الكنيسة، ومواضعَ الأنهار، وموقعَ الطحالب، وترتيبَ الطيور فى سرب. ومع ذلك، فإنَّ هؤلاء الصمَّ تجاه الزمان، ليسوا قادرين على التعبير عما يعرفون، لأنَّ الكلام يحتاج إلى سلسلة من الكلماتِ المنطوقةِ بالتعاقب فى الزمان.

٩ حزيران/ يونيو ١٩٠٥

افترضْ أنَّ الناس يعيشون إلى الأبد.

بصورة غريبة، سينقسم سكان كلِّ مدينةٍ إلى قسمين: أصحاب الـ (فيما بعد)، وأصحاب (الآن).

يعتقد أصحاب الـ (فيما بعد) أنَّه ليس ثمّة عجلة للشروع فى دراستهم بالجامعة، أو تعلُّم لغةٍ ثانية، أو قراءة فولتير أو نيوتن، أو محاولة البحث عن ترقيةٍ فى عملهم، أو الدخول فى علاقةٍ غرامية، أو تكوين عائلة. فلجميع هذه الأمور متَّسعٌ لا حدَّ له من الزمان؛ ففى الزمان الذى لا نهاية له، يمكن إنجاز جميع الأشياء. وهكذا يمكن لجميع الأشياء أن تنتظر. وفى الحقيقة، العجلة فى الأفعال تولِّد الأخطاء. ومَن الذى يستطيع أن يجادلهم فى منطقهم هذا؟

من الميسور التعرُّف على أصحاب الـ (فيما بعد) فى أىِّ دكانٍ أو متنزَّه؛ فهم يمشون بتمهُّل، ويرتدون ملابس فضفاضة، ويستمتعون بقراءة أيّة مجلات مفتوحة، أو يعيدون ترتيب قطع الأثاث فى منازلهم، أو ينزلقون فى محادثةٍ، بنفس الطريقة التى تسقط فيها ورقةٌ من شجرة. يجلس أصحاب الـ (فيما بعد) فى مقاهٍ، يحتسون القهوة، ويناقشون إمكانات الحياة.

أمّا أصحاب (الآن)، فيدركون أنّهم، فى حياة لا نهاية لها، فى وسعهم أن يفعلوا جميع ما يمكنهم تخيُّله. سيمارسون عددا لا متناهٍ من المهن، وسيتزوّجون عددا لا متناهٍ من المرّات، وسيغيرون سياساتهم بصورةٍ لا متناهية، فكلُّ شخصٍ منهم سيكون محاميا، وبنّاء، وكاتبا، ومحاسبا، ورسّاما، وفيزيائيا، وفلاحا.

أصحاب (الآن) يقرأون دوما كُتُبا جديدة، ويتدرَّبون على مهنٍ جديدة، ويتعلَّمون لغاتٍ جديدة. ومن أجل أن يتذوَّقوا لانهائياتِ الحياة، يبدأون مبكِّرا، ولن يتوانوا أبدا. ومَن ذا الذى يستطيع أن يضع منطقهم موضع التساؤل؟ يتمُّ العثور

على أصحاب (الآن) بسهولة؛ فهم مالكو المقاهى، وأساتذة الكلّيات، والأطباء، والممرضات، والسياسيون، والناس الذين يحرّكون أرجلهم باستمرار متى ما يجلسون. إنّهم يتنقّلون خلال حيواتٍ متعاقبة، تحدوهم الرغبة فى أن لا يفوتهم شيء. وعندما يلتقى مصادفة شخصان من أصحاب (الآن) عند الأعمدة السداسية الأضلاع فى نافورة (زاهرنغر)، فإنّهما يقارنان الحيوات التى عاشاها، ويتبادلان المعلومات، ويلقيان نظرات عجلى على ساعتيْهما. وعندما يلتقى اثنان من أصحاب الـ (فيما بعد) فى نفس المكان، فإنهما يتأمّلان المستقبل، ويتابعان انسياب الماء بأَعْيُنهم.

ثمّة شىءٌ واحدٌ مشترك بين أصحاب (الآن) وأصحاب الـ (فيما بعد)؛ فمع الحياة اللامتناهية، تأتى قائمة لا متناهية من الأقرباء؛ فالأجداد لا يموتون بتاتا، وكذلك أجداد الأجداد، ولا عمّات الوالدَيْن ولا أخوالهم، ولا أجداد الخالات، وهكذا فصاعدا خلال الأجيال، فكلُّهم أحياء، ويقدّمون النصائح. والأبناء لا يتخلّصون بتاتا من هيمنة آبائهم، ولا البنات من سيطرة أُمّهاتهن. لا أحد يستقلّ بذاته.

عندما يشرع رجلٌ فى عملٍ ما، يشعر بأنّه ملزمٌ بالتحدُّث عنه مع والديه، وجدّيه، وأجداد جدّيه، وهكذا بصورةٍ لا متناهية، للتعلّم من أخطائهم. ففى مثل هذا العالَم، يحدُّ الطموحُ المتضائلُ من الإنجازات المتعاظمة.

وعندما تلتمس فتاةٌ توجيها من أُمّها، لا يمكنها أن تحصل عليه صِرفا؛ فالأُمّ عليها أن تستشير أُمّها، وهذه بدورها تسأل أُمّها، وهكذا دواليك إلى الأبد؛ فكما أن الأبناء والبنات ليس فى وسعهم اتخاذ القرارات بأنفسهم، فإنّهم لا يستطيعون الحصول على نصيحةٍ حميمةٍ من والديهم؛ فالوالدان ليسا مصدر الاطمئنان، فهناك مليون مصدر.

عندما يتوجّب التحقُّق من كلّ فعلٍ مليون مرّة، تكون الحياة

تجريبية لا نهائية. فالجسور تُبنى إلى منتصف النهر ثم تتوقّف فجأة. والبنايات ترتفع إلى الطابق التاسع، ولكنّها تبقى بلا سقوف. ومخزون البقال من الزنجبيل، والملح، وسمك القُدّ، ولحم البقر، يتغيّر مع كلّ تغيّر فى الرأى، ومع كلّ استشارة. والجُمل تبقى ناقصة، والخِطبة تُفسَخ قبل يومٍ واحدٍ من الزفاف. وفى الشوارع والطرقات، يدير الناس رؤوسهم، وينظرون إلى الوراء، ليروا مَن الذى قد يراقبهم.

هذا هو ثمن الخلود. لا شخصَ كامل، لا شخصَ حرّ. وبمرور الزمان، يصل بعضهم إلى قرار هو أنّ السبيل الوحيد إلى الحياة هو الموت؛ ففى الموت يتحرّر الرجل أو المرأة من ثقل الماضى. وهؤلاء القلائل ينهون حياتهم اللانهائية تحت أعين أقربائهم الأعزاء، بالغطس فى بحيرة (كونسيتانس)، أو برمى أنفسهم من جبل (ليما)؛ وبهذه الطريقة ينتصر المتناهى على اللامتناهى، والملايين من فصول الخريف تؤدّى إلى لا خريف، وملايين من تساقطات الثلوج تنتهى إلى لا تساقط للثلوج. وملايين من التحذيرات تقود إلى لا تحذير.

١٠ حزيران/يونيو ١٩٠٥

لنفترضْ أنَّ الزمان ليس كمّا وإنَّما نوع، مثل وهج الليل فوق الأغصان لحظةَ ملامسة شروق القمر لأقاصى الأشجار. للزمان وجودٌ، ولكن لا يمكن قياسه.

فى هذه اللحظة، ذاتَ عصرٍ مشمس، تقفُ امرأةٌ وسط ساحة المحطة، تنتظر لقاء رجلٍ مُعيَّن. رآها ذلك الرجل عندما كانا فى قطار متَّجه إلى بلدة فرايبورغ، فُتِنَ بها، وعرض عليها أن يصطحبها إلى حدائق منتزه (شانزة) الكبير. من العجلة الظاهرة على صوته والنظرة فى عينيْه، أدركتِ المرأة أنَّه يعنى حالا، ولهذا فهى تنتظره، ليس بفارغ الصبر، إذ إنها تمضى الوقت بقراءة كتاب. وبعد بعض الوقت، ربّما فى اليوم التالى، يصل الرجل، فتتشابك أيديهما، ويسيران إلى المنتزه، ويمرّان بخمائل الزنابق، والورد والياسمين والأزهار الحمائمية الألبية، ويجلسان على مصطبة من خشب الأرز، لوقتٍ لا يمكن قياسه. يحلُّ المساء، وعلامته تغيُّرٌ فى الضوء واحمرارٌ فى السماء. يسير الرجل والمرأة فى ممرٍ ملتوٍ من الحجر الأبيض إلى مطعمٍ يقع على تلٍّ. هل كانا معا عُمرا كاملا أم مجرَّد لحظة؟ مَن ذا الّذى يستطيع معرفة ذلك؟

من خلال شبابيك المطعم ذات الإطار المعدنى، تلمح أُمُّ الرجل ابنها جالسا مع المرأة. تلوى يديها وتتحسّر، لأنَّها تريد أن يعود ابنها إلى المنزل؛ فهى لا تزال تراه طفلا. هل مرّ وقتٌ منذ أن كان يسكن معها فى المنزل، منذ أن كان يلعب لعبة مسك الكُرة مع أبيه، منذ أن كان يدلّك ظهر أمّه قبل أن تأوى إلى فراشها؟ فالأمُّ لا تزال ترى تلك الضحكة الطفولية على وجه ولدها فى ضوء الشموع من خلال شبابيك المطعم ذات الإطار المعدنى. وهى متأكّدة من أنَّ وقتا لم يمضِ على فراق ابنها، وأنَّ مكان-ولدها، طفلها، معها فى البيت. تنتظر خارج المنزل،

وهى تلوى يدَيْها فى الوقت الذى يكبر فيها ابنها بسرعة من جراء حميميّة هذه الأمسية، وبفضل هذه المرأة التى التقاها.

وعبر الشارع، فى شارع آربرغر، يتناقش رجلان حول شحنة من الأدوية؛ فمُستلمُ الشحنة غاضب لأنّ هذه الأدوية ذات صلاحية قصيرة، وقد وصلتْ متأخِّرةً وفاقدةً لصلاحيّتها؛ فقد كان ينتظرها منذ وقتٍ طويل. فى الحقيقة كان ينتظرها فى محطة القطار بعض الوقت، الذى عرفه من خلال مجيء امرأة ذات شعر أشيب ورواحها فى المنزل رقم ٢٧ فى شارع شبيتال، ومن خلال عدّة أنماط من الضوء على جبال الألب، ومن خلال تغيُّرات الهواء من الحرارة إلى البرودة إلى الرطوبة. أمّا مُرسِل الشحنة، وهو رجلٌ غليظٌ قصيرُ القامة له شارب كث، فقد شعرَ بالإهانة، إذ إنّه عبّأ الأدوية فى الصناديق فى مصنعه بمدينة بازل، حالما سمع مظلات الدكاكين تُفتَح فى السوق؛ وحملَ الصناديق إلى القطار عندما كانت الغيوم ساكنةً فى نفس موضعها عندما وقّع العقد؛ فماذا كان بإمكانه أن يفعل أكثر من ذلك؟

فى عالمٍ لا يمكن قياس الزمان فيه، لا توجد ساعاتٌ حائطية ولا تقاويم ولا مواعيد محدّدة؛ فالحوادثُ تُطلِقها حوادثُ أُخرى، وليس الزمان. فبناءُ الدار يبدأُ عندما يصل الحجر والخشب فى موقع البناء؛ ومقلع الأحجار يسلِّم الحجر عندما يحتاج صاحب المحجر إلى المال؛ والمحامى يغادر منزله للمرافعة فى قضية مطروحة على المحكمة العليا، عندما تروى ابنته نكتةً عن صلعته الآخذة فى الاتساع. وتُختتم السنة الدراسيّة فى المدرسة الثانوية فى بيرن، عندما يجتازُ الطالب امتحاناته. وتغادر القطاراتُ المحطة الواقعة فى ساحة المحطة، عندما تمتلئ العربات بالمسافرين.

فى عالمٍ يكون فيه الزمان نوعا، تؤرِّخ الأحداث بلونِ السماء، ونغمةِ مناداةِ المراكبيِّ فى نهر الآره، وشعورِ الشخص بالسعادة أو الخوف عند دخوله الغرفة. فولادةُ طفل، وبراءةُ اختراع،

واجتماعُ شخصَيْن، ليست نقاطا محدَّدة فى الزمن، ومثبّتة بالساعات والدقائق؛ فالأحداث تنزلق فى فضاء الخيال، وتتبلور بالنظرة، والرغبة. وبالمِثل، فإنّ طول الوقت الفاصل بين حادثتين أو قصره، يعتمد على خلفيّة الحوادث المتضاربة، وشدّة الإضاءة، ودرجة النور والظّل، ووجهة نظر المشاركين فى تلك الحوادث.

يحاول أناس أن يكمِّموا الزمان، أن يُغْرِبوا الزمان، أن يُشرّحوا الزمان؛ فيتحوَّلون إلى حجرٍ، وتقف أجسادهم مجمَّدةً فى زوايا الشوارع، باردةً، وقاسيةً، وثقيلةً؛ وفى الوقت المناسب، تُنقَل هذه التماثيل إلى صاحب مقلع الأحجار، ليقطِّعها إلى قطع متماثلة الحجم، فى أقسام متساوية، ويبيعها لبنّاء الدور عندما يحتاج إلى المال.

١١ حزيران/ يونيو ١٩٠٥

فى زاوية التقاء شارع كرام بساحة المسرح، ثمّة مقهىً صغيرٌ مفتوح فيه ستُّ طاولاتٍ زرقاء، وصفٌ من مزهرياتِ نباتِ التَّبغية مرتّبة فى شبّاك صاحب المقهى، ومن هذا المقهى يستطيع المرء أن يرى ويسمع مدينة بيرن برمّتها. فالناس ينساقون فى أروقة شارع كرام، يتكلّمون ويتوقّفون لشراء المنسوجات، أو الساعات اليدوية، أو القرفة؛ وتخرج مجموعةٌ من الأولاد فى الثامنة من العمر من المدرسة الابتدائية الكائنة فى شارع كوشر وهم يسيرون خلف معلّمهم فى خطٍّ واحد، مخترقين الشوارع، متّجهين إلى ضفاف نهر الآره؛ ويتصاعد الدخان بتكاسلٍ من طاحونةٍ تقع وراء النهر تماما؛ ويقرقر الماء متدفّقا من نافورة زاهرنغر؛ وتدقُّ ساعة البرج العملاقة فى شارع كرام معلنةً الساعة الثانية عشرة والربع.

إذا تغاضى الإنسان، فى هذه اللحظة، عن أصوات المدينة وروائحها، فإنّه سيشاهد منظرا رائعا؛ ففى زاوية شارع كوشر، يحاول رجلان أن يفترقا، ولكنّهما لا يستطيعان ذلك، كما لو أنّهما لن يريا أحدهما الآخر مرّةً أُخرى. يودّعان بعضهما، يأخذان فى السير فى اتّجاهيْن متعاكسيْن، ثمّ يعودان مسرعيْن ليلتقيا ويتعانقا. وبالقرب منهما، هنالك امرأة فى منتصف العمر تجلس على الحافة الحجرية للنافورة، وهى تبكى بصمت. تقبض على الحجر بيديْها الملطّختيْن بلونٍ أصفر، تقبض عليه بشدّة لدرجة أنّ الدم يهرب من يديها، وتحدّق بيأسٍ إلى الأرض. وتوحى وحدتُها الدائمة بأنّها تعتقد أنّها لن ترى الناس الآخرين مرّة أُخرى. وتتمشّى امرأتان مرتديتان سترتيْن يدا بيد فى شارع كرام، وهما تضحكان كثيرا كما لو أنّهما لا تفكّران فى المستقبل أبدا.

فى الحقيقة، هذا عالَمٌ بلا مستقبل. ففى هذا العالم، الزمانُ خطٌّ ينتهى فى الحاضر، فى الواقع وفى المخيلة. فى هذا العالم،

لا أحد يستطيع أن يتصوّر المستقبل. فتصوُّر المستقبل ليس أقلَّ استحالةً من رؤية ألوانٍ ما وراء اللون البنفسجى: فالحواس لا تستطيع إدراك ما يمكن أن يوجد بعد النهاية المرئية للطيف الشمسى. فى عالمٍ بلا مستقبل، يُعَدُّ كلُّ فراقٍ بين صديقيْن بمثابة الموت. فى عالمٍ بلا مستقبل، كلُّ عزلة هى نهائية. فى عالمٍ بلا مستقبل، كلُّ ضحكةٍ هى الضحكة الأخيرة. فى عالمٍ بلا مستقبل، ليس ثمّةَ شيءٌ بعد الحاضر سوى الفراغ، والناس يتمسّكون بالحاضر كما لو كانوا يتشبثون بصخرة فى هاويةٍ جبليّةٍ سحيقة.

شخصٌ لا يستطيع أن يتصوّر المستقبل، هو شخصٌ لا يستطيع أن يفكّر مليا فى عواقِب أفعاله. وهكذا فبعضهم يصيبه الشلل فلا يفعل شيئا؛ وهؤلاء يبقون مضطجعين فى أَسِرَّتهم طوال اليوم، مستيقظين تماما، لكنّهم يخشون أن يرتدوا ملابسهم. يحتسون القهوة وينظرون إلى الصور الفوتوغرافية. وبعضهم الآخر يقفزون من الفراش فى الصباح، غير عابئين بحقيقة أنّهم ليسوا قادرين على تخطيط حياتهم. يعيشون لحظةً بلحظة، وكلُّ لحظةٍ مليئة. وثمّة فريقٌ ثالث، يضعون الماضى محلَّ المستقبل. إنّهم يعيدون التأمُّل فى كلِّ ذكرى، وكلِّ فعل أُنجِز، وكلِّ سببٍ ونتيجة، وهم مسحورون بكيفيّة توالى الأحداث لتُوصِلهم إلى هذه اللحظة، اللحظة الأخيرة فى العالم، نهاية الخطِّ الذى هو الزمان.

فى المقهى الصغير ذى الطاولات الست فى الخارج وصفٍ من نباتات التّبغية، يجلس شابٌ وأمامه كعكةٌ وفنجانُ قهوة. كان يتأمّل الشارع بتؤَدَة. لقد رأى المرأتيْن الضاحكتيْن المرتديتيْن سترتيْن، والمرأةَ التى فى منتصف عمرها وهى تجلس بالقرب من النافورة، والصديقيْن اللذيْن ظلا يودِّع أحدهما الآخر؛ وفيما هو جالس، مرّت سحابةٌ سوداءُ ممطرةٌ فوق المدينة؛ ولكنَّ الشابَّ بقى جالسا إلى طاولته؛ فهو يستطيع أن يتصوَّر الحاضر

فقط. وفى هذه اللحظة صارت السماء ملبدة بالغيوم ولكن بلا مطر. وفيما هو يأكل الكعكة ويحتسى القهوة، راح يتأمَّل فى كيفية انتهاء العالم فى هذا الظلام الدامس. ومع ذلك، فليس ثمَّة مطر، فأخذ يدقِّق النظر فى جريدته تحت الضوء المتضائل، محاولا أن يقرأ آخرَ جملةٍ يقرأها فى حياته. ثمَّ يهطل المطر. يذهب الشابُّ إلى الداخل، يخلع سترته المبتلة، ويتساءل كيف ينتهى العالم فى المطر. يناقش الأكل مع الطباخ، ولكنَّه لا ينتظر توقُّف المطر، لأنَّه لا ينتظر أيَّ شىء؛ ففى عالَم بلا مستقبل، كلُّ لحظةٍ تمثِّل نهاية العالم. وبعد عشرين دقيقة، تمرُّ الغيوم العاصفيَّة، يتوقَّف المطر، وتُشرِق السماء. يعود الشابُّ إلى طاولته، وهو يتساءل ما إذا كان العالَم ينتهى فى ضوء الشمس؟

١٥ حزيران/ يونيو ١٩٠٥

فى هذا العالم، الزمان بُعْدٌ مرئىٌ؛ تماما كما ينظر المرء بعيدا ويرى المنازل، والأشجار، وقمم الجبال، التى تشكّلُ علاماتٍ فى الفضاء، وإنّه قد يحوّل نظره إلى الاتّجاه الآخر، فيرى الولادات، وزيجات الأزواج، والوفيات التى تشكّل معالمَ فى الزمان، ممتدّةً بصورةٍ باهتةٍ فى المستقبل البعيد. وتماما كما قد يختار الإنسان البقاء فى مكانٍ واحد أو الانتقال إلى مكانٍ آخر، فإنّه قد يختار حركته على طول محور الزمان. بعض الناس يخشون السفر بعيدا عن لحظةٍ مريحة. فهم يظلّون بالقرب من موضعٍ زمانىٍّ واحد، وقلّما يدبّون متجاوزين مناسبةً مألوفة. وبعضهم الآخر يهرولون بتهوُّرٍ إلى المستقبل، دون الاستعداد للتعاقُب السريع للأحداث العابرة.

فى الكُلّية التكنولوجية فى مدينة زوريخ، يجلس شابٌّ وأستاذه فى مكتبةٍ صغيرة، وهما يناقشان بهدوء أطروحةَ الشابِّ لدرجة الدكتوراه. إنّه شهر كانون الأول/ ديسمبر، والنار موقدةٌ فى المدفأة ذات الإطار المرمرىّ. يجلس الشابّ وأستاذه على كرسيَّيْن مريحَيْن مصنوعَيْن من خشب البلوط، إلى منضدةٍ مستديرةٍ مكسوّةٍ بصفحات من المعادلات الرياضية. فقد كان البحث صعبا. وفى كلِّ شهرٍ من الشهور الثمانية عشر الماضية، كان الشابُّ يلتقى بأستاذه فى هذه الغرفة، يطلب منه التوجيه والأمل، ثمّ يذهب ليشتغل شهرا آخر، ثمّ يعود بأسئلةٍ جديدة. وكان الأستاذ يزوّده بالأجوبة دوما. واليوم كذلك يقدِّم الأستاذ الشروح اللازمة. وفيما الأستاذ يتكلّم، ينظر الشابُّ عبر الشباك، ويتأمّل فى كيفيّة التصاق الثلج بشجرة الصنوبر الكائنة بجانب البناية، ويتساءل فى ذات نفسه كيف يمكنه أن يتدبّر أمره بنفسه عندما يحصل على شهادته. وفيما الشابُّ جالس فى مقعده، يتقدّم بتردُّد فى الزمان، مجرّد دقائق فى المستقبل، وهو يرتجف من البرد وعدم الثقة بالنفس، يتراجع. من الأفضل أن يبقى فى هذه اللحظة بجانب النار الدافئة، وبجانب دفء المساعدة التى يتلقاها

من المشرِف على أطروحته. من الأفضل أن يتوقّف عن التحرُّك فى الزمان. وهكذا وحتّى هذا اليوم، يبقى الشاب فى المكتبة الصغيرة. يمرُّ أصدقاؤه بالقرب منه، ينظرون إليه بسرعة ليروه قد توقّف عند هذه اللحظة لا يبرحها، ثمّ يواصلون سيرهم فى المستقبل، كلٌّ حسب سرعته.

فى البناية رقم ٢٧ فى شارع فكتوريا، فى مدينة بيرن، تستلقى شابةٌ فى فراشها. وتصل إلى غرفتها أصوات مشاجرةٍ بين والديها. تسدُّ أُذنيها وتحدِّقُ إلى صورةٍ فوتوغرافيةٍ موضوعةٍ على طاولتها، صورة فوتغرافية لها عندما كانت طفلة وهى تجلس على الشاطئ مع أُمِّها وأبيها. وبجانب أحد جدران غرفتها، ثمّة مكتب مصنوع من خشب الكستناء، وعليه مغسلةٌ خزفية. الصباغة الزرقاء على الحائط أخذت تتقشّر وتتشقّق. وبالقرب من فراشها، توجد حقيبة مفتوحة، نصف مملوءة بملابسها. تنظر الشابة إلى الصورة الفوتوغرافية، ثمّ إلى الزمان فى الخارج. المستقبل يدعوها بإغراء. تحزم أمرها. وبدون أن تستكمل وضع ملابسها فى الحقيبة، تنطلق مسرعةً خارج المنزل، فى هذه النقطة فى حياتها، تنطلق متّجهةً مباشرةً إلى المستقبل. تنطلق سنةً واحدةً إلى الأمام، خمس سنين، عشر سنين، عشرين سنة، وأخيرا تضغط على الفرامل؛ ولكنّها منطلقةٌ بحركةٍ سريعةٍ جدا بحيث لا يمكنها أن تبطئ من سرعتها حتّى تبلغ الخمسين عاما من العمر. كانت الأحداث تجرى أمام ناظريْها بسرعةٍ وبالكاد تراها. صاحَبَها محامٍ أصلعُ وحبَلها ثمّ هجرها. شبح سنةٍ فى الجامعة. شقةٌ صغيرةٌ فى لوزان لفترةٍ من الزمن. صديقةٌ فى فرايبورغ. زياراتٌ متفرِّقة لوالدَيْها اللذين غزى الشيب مفرقيهما. غرفةٌ فى المستشفى حيث ماتت أُمُّها. شقّةٌ رطبةٌ فى زوريخ، تفوح منها رائحة الثوم، حيث مات أبوها. رسالة من ابنتها، التى تعيش فى مكان ما فى إنجلترة.

تُمسِك المرأة أنفاسها. إنّها تبلغ الخمسين سنة من العمر. تضطجع فى فراشها، تحاول أن تتذكّر حياتها، تحدِّق إلى صورةٍ فوتوغرافية لها، وهى طفلةٌ جالسةٌ على الشاطئ مع أُمِّها وأبيها.

١٧ حزيران/ يونيو ١٩٠٥

إنّه صباح يوم الثلاثاء فى مدينة بيرن. والخبّاز ذو الأصابع الغليظة فى السوق يصرخ فى وجه امرأةٍ لم تُسدِّد فاتورتها الأخيرة، ملوِّحا بذراعيه، فيما هى تضع مُشتراها الجديد من الخبز فى حقيبتها بهدوء. وخارج دكان الخبّاز، طفلٌ يتزلّج مُلاحِقا كُرةً رُميت من شبّاكٍ فى الطابق الأوّل، ومِزلَجاه (حذاءا التزلُّج) يطقطقان على أرض الشارع الصخريّة. وفى النهاية الشرقيّة من السوق، حيث يلتقى شارع السوق بشارع كرام، يقف رجلٌ وامرأةٌ متقاربيْن فى ظلّ رواق. يمرُّ بهما رجلان يتأبطان جرائدهما. وعلى بُعْد ثلاثمائة مترٍ إلى الجنوب، يحلِّق طيرٌ مغرِّدٌ بتكاسلٍ فوق نهر الآره.

يتوقّف العالَم.

يتجمَّد فم الخبّاز فى منتصف العبارة. يبقى الطفل طافيا فى وسط الخطوة، وتبقى الكرة معلّقةً فى الهواء. يتحوَّل الرجل والمرأة إلى تمثاليْن تحت الرواق. يصير الرجلان المارّان تمثاليْن، وتتوقَّف محادثتهما كما لو أن إبرة الحاكى (الفونوغراف) قد رُفِعت عن الاسطوانة. يتجمَّد الطير فى تحليقه، ويبقى ثابتا معلّقا فوق النهر، مثل علاقة معدنية صغيرة فى سقف المسرح.

بعد جزيئة من مليونٍ من الثانية، يبدأ العالم مرّةً أُخرى.

يواصل الخباز كلامه كما لو أنّ شيئا لم يحدث. وهكذا، أيضا، يجرى الطفل خلف الكُرة؛ ويقترب الرجل والمرأة من بعضهما. ويستمرُّ الرجلان فى مناقشة ارتفاع الأسعار فى سوق اللحوم. ويرفرف الطير بجناحيْه ويواصل تحليقه فوق نهر الآره.

بعد دقائق، يتوقّف العالَم مرّةً أُخرى. ثمّ يبدأ مرّةً أُخرى. يتوقّف. يبدأ.

أىُّ عالَم هذا؟ فى هذا العالَم، الزمانُ ليس مستمرا. فى هذا العالَم، الزمان متقطِّع. الزمان نسيجٌ من ألياف عصبيّة،

يبدو مستمرا عن بُعْد، ولكنَّه غير متَّصلٍ عن قُرب، مع فجوات ميكروسكوبيّة بين الألياف. يجرى الفعلُ العصبىُّ خلال قطعةٍ واحدة من الزمان، يتوقَّف فجأةً، يتردَّد، يقفز فى فراغ، ويستأنف مسيرته خلال قطعة تالية.

التقطُّعات فى الزمان ضئيلة جدا لدرجة أنَّ الثانية الواحدة يجب أن تُكبَّر وتحلَّل إلى ألف جزيئةٍ، وكلُّ واحدةٍ من هذه الجزيئات تُحلَّل إلى ألف جزيئة، قبل أن يُصبح فى الإمكان ملاحظة الجزيئة المفقودة من الزمان. إنَّ تقطُّعات الزمان ضئيلةٌ لدرجة أنَّ الفجوات بين الجزيئات لا يمكن إدراكها عمليّا. وبعد كلِّ استئنافٍ فى الزمان، يبدو العالَم الجديد مثل العالم القديم تماما. فمواضع الغيوم وتحرُّكاتها تبدو نفسها بالضبط، ومسارات الطيور، وتدفّق المحادثات، والأفكار.

إنَّ جزيئات الزمان يتَّصل بعضها ببعض بصورةٍ مثاليةٍ كاملةٍ تقريبا، ولكن ليست كاملةً تماما. أحيانا تحدث بعض الانزياحات الطفيفة؛ فمثلا فى يوم الثلاثاء هذا فى مدينة بيرن، رجلٌ وامرأةٌ فى أواخر العشرينيّات من عمرهما، يقفان تحت عمود الضوء فى شارع غيربيرن. التقيا قبل شهر. هو يحبّها حبّا جمّا، ولكن سبق أن كسرتْ قلبَه امرأةٌ هجرته دون سابق إنذار، ولهذا فهو يخشى الحبَّ. يجب أن يتأكَّد من حبِّ هذه المرأة له. فهو يتأمَّل وجهها، ويلتمس بصمتٍ مشاعرها الحقيقية، ويبحث عن أصغر علامةٍ، وأدنى حركةٍ من حاجبَيْها، وأوهى احمرارٍ فى خدّيْها، وندى عينيْها.

فى الحقيقة، إنَّها تبادله الحبّ، ولكنَّها لا تستطيع أن تعبِّر عن حبِّها بالكلمات. وبدلا من ذلك، فهى تبتسم له، غير مدركةٍ مخاوفه. وفيما هما واقفان تحت عمود الضوء فى الشارع، يتوقَّف الزمان ثمَّ يستأنف سريانه. وبعد ذلك، يبدو ميلان رأسيهما واحدا بالضبط، ومدار نبض قلبيهما لا تغيُّر فيه. ولكن فى موضعٍ ما فى أعماق أغوار عقلِ المرأة،

طفتْ فكرةٌ باهتةٌ إلى الأعلى، مع أنّها لم تكُن هناك من قَبل. وفيما تحاول المرأة الوصول إلى هذه الفكرة الجديدة فى أغوار اللاوعى؛ يطرأ فراغٌ واهٍ عبر ابتسامتها. وهذا التردُّد الخفيف لا يُرى إلا بالتنقيب الدقيق، ومع ذلك، فإنّ الشابّ اللجوج لَحَظَهُ واتّخذه بمثابة علامة. فيُخبر الفتاة أنّه لا يستطيع رؤيتها مرّةً أُخرى، ويعود إلى شقّته الصغيرة فى شارع زيخهاوس، ويقرِّر أن ينتقل إلى مدينة زوريخ للعمل فى مصرف عمّه. تسير الفتاة من عمود الضوء فى شارع غيربيرن إلى منزلها وهى تتساءل لماذا لم يحبّها ذلك الشابّ؟

فاصلة

يجلس أينشتاين وبيسو فى قاربِ صيدٍ صغيرٍ راسٍ فى النهر. بيسو يأكل سندويشا بالجبنة، فى حين يدخّن أينشتاين غليونه، ويلفُّ سلك الصنّارة ببطء.

يسأل بيسو الذى لم يمارس صيد السمك مع أينشتاين من قبل:

ـ «هل تصطاد شيئا هنا، والقارب فى وسط نهر الآره؟»

يجيب أينشتاين الذى يستمرُّ فى إلقاء الصنّارة فى النهر:

ـ «مطلقا.»

ـ «لعلَّ من الأفضل أن نقترب من الشاطئ، بمحاذاة ذلك القصب.»

يقول أينشتاين:

ـ «نستطيع أن نفعل ذلك. لم أصطد أىَّ شىء هناك، كذلك. خذ سندويشا آخر من تلك الحقيبة.»

يناول بيسو أينشتاين سندويشا وقنينةَ جعة. يشعر بيسو بالذنب شيئا ما، لأنَّه طلب من صديقه أن يصطحبه معه هذا المساء من يوم الأحد. فقد كان أينشتاين يعتزم الذهاب إلى الصيد وحيدا، من أجل أن يفكِّر ويتأمل.

يقول بيسو:

ـ «كُلْ. فأنتَ تحتاج إلى استراحةٍ، بعد سحبِ كلِّ هذه الأسماك.»

يضع أينشتاين عصا الصنّارة فى حضن بيسو، ويشرع فى الأكل. ولوهلةٍ، يسود الصمت بين الصديقيْن. يمرّ زورقٌ شراعىٌّ أحمرُ صغير، بالقرب منهما، محرِّكا الأمواج، فيترجرج قارب الصيد بهما.

وبعد الغداء، يزيل أينشتاين وبيسو المقاعد فى القارب، ويستلقيان على ظهريهما، وينظران إلى السماء.

فقد تخلّى أينشتاين عن الصيد فى هذا اليوم.

يسأل أينشتاين:

ـ «أيّةُ أشكال ترى فى الغيوم، يا ميخائيل؟»

ـ «أرى عنزا تطارد رجلا مقطّبَ الجبين.»

ـ «أنتَ رجلٌ عمليٌّ، يا ميخائيل.»

يقول أينشتاين ذلك وهو يحدّق إلى الغيوم، ولكنّه غارق فى التفكير فى مشروعه. يريد أن يخبر بيسو عن أحلامه، ولكنّه لا يستطيع أن يحمل نفسه على ذلك.

يقول بيسو:

ـ «أعتقد أنّكَ ستنجح فى نظريتك عن الزمان. وعندما تنجح سنذهب للصيد، وستشرحها لى؛ وحينما تصبح مشهورا، ستتذكّر بأنّك أخبرتنى بها أولا، هنا فى هذا القارب.»

يضحك أينشتاين، وترتج الغيوم جيئةً وذهابا مع ضحكته.

١٨ حزيران/ يونيو ١٩٠٥

ينبثق صفٌّ طويلٌ تعداده عشرة آلاف شخص من كاتدرائية في وسط روما، ويمتدّ إلى الخارج على شكل نصف دائرة، مثل عقربِ ساعةِ حائطٍ عملاقة، إلى آخر المدينة، وما وراءه. ومع ذلك، فإنّ هؤلاء الحجاج الصابرين يُوجّهون إلى الداخل، لا الخارج. إنّهم ينتظرون دَوْرَهم لدخول (معبد الزمان). إنّهم ينتظرون الانحناء أمام (الساعة العظمى)؛ فقد جاءوا مسافرين من مسافاتٍ بعيدة، وحتى من أقطارٍ أُخرى، ليؤمّوا هذا الحرم المقدّس. الآن يقفون خاشعين، فيما يدبُّ الصفُّ متقدّما عبر شوارع نقيّة. بعضهم يقرأ من كتب الأدعية، وبعضهم يحمل أطفالا، وبعضهم يأكل التين ويشرب الماء. وفيما هم ينتظرون، يبدو عليهم أنّهم غيرُ مكترثينِ بمرور الوقت؛ فهم لا ينظرون إلى ساعاتهم اليدويّة، لأنّهم لا يمتلكون ساعاتٍ يدوية. وهم لا ينصتون إلى دقّاتٍ صادرةٍ من برجِ ساعة، لأنّه لا توجد أبراج ساعات. فالساعات اليدوية والساعات الحائطية ممنوعةٌ منعا باتا، ما عدا (الساعة العظمى) في (معبد الزمان).

في داخل المعبد، يقف اثنا عشر حاجّا في دائرةٍ حول (الساعة العظمى)، كلُّ حاجٍّ منهم إزاء رقم من أرقام الساعة المؤشّرة على صورةٍ ضخمة لها من المعدن والزجاج. وفي داخل دائرتهم، يتأرجح بندولٌ برونزيٌّ ثقيلٌ من علو إثني عشر مترا، وهو يتلألأ في ضوء الشموع. وينشد الحجّاج مع كلِّ حركةٍ من حركات البندول، ينشدون مع كلِّ زيادةٍ محسوبةٍ في الزمان، ينشدون مع كلِّ دقيقة تُطرَح من حياتهم. هذا هو قُربانهم.

وبعد ساعةٍ من الخشوع أمام (الساعة العظمى) ينصرف الحجّاج، ويتقدّم اثنا عشر حاجا غيرهم عبر البوابة العالية. وقد استمرّت هذه المسيرة قرونا طويلة.

قبل زمنٍ طويل، قبل (الساعة العظمى)، كان الزمان يُقاس

بالتغيُّرات التى تطرأ على الأجرام السماوية: الحركة البطيئة للنجوم فى السماء ليلا، قوس الشمس والتغيُّر فى الضوء، بزوغ القمر ونموّه وأفوله، المدّ والجزر، الفصول. كان الزمان يُقاس كذلك بدقّات القلب، بإيقاعات النعاس والنوم، بتكرُّر الجوع، بحيض النساء، بمدى الشعور بالوحدة. ثمّ، فى بلدةٍ صغيرةٍ فى إيطاليا، صُنعت أوّل ساعةِ حائطٍ ميكانيكية. فُتِنَ بها النّاس. وبعد ذلك أصابهم الرعب. فها هنا اختراعٌ بشريٌّ ضَبَطَ كمّيات مرور الزمان، ووضعَ المسطرة والفرجار على مدى الرغبة، فقاسَ لحظات الحياة بِدقّة. كان اختراعا سحريًا، وكان لا يُحتَمل، وكان خارج القانون الطبيعى. ومع ذلك، فإنّه لم يكُن من الممكن إغفال ساعة الحائط. كان ينبغى أن تُعبَد. أُقنع المخترِع أن يصنع (الساعة العظمى)، وبعد ذلك قُتِل، ودُمِّرت جميع الساعات الأُخرى، ثمّ بدأت مواسم الحجّ.

وبصورةٍ أو بأُخرى، فإنّ الحياة تجرى الآن تماما كما كانت تجرى قبل (الساعة العظمى)؛ فشوارع المدن وأزقتها، تصدح بضحكاتِ الأطفال. وتتجمّع الأُسَرُ فى المناسبات السعيدة لتأكل لحم البقر المدخَّن وتشرب الجعة، والفتيان والفتيات ينظرون بحياء أحدهم إلى الآخر عبر ممراتِ رواقٍ ما. ويزيِّن الرسامون المنازل والبنايات بلوحاتهم. ويمارس الفلاسفة التأمُّل. وكلُّ نَفَسٍ، وكلُّ حركةِ ساقيْن، وكلُّ رغبةٍ عاطفية، لها جذر فى الدماغ. وكلُّ فعلٍ، مهما كان صغيرا، لم يعُدْ حرًا؛ لأنّ جميع الناس يعلمون أنّه فى كاتدرائيةٍ معيَّنةٍ فى وسط مدينة روما، يتأرجح بندولٌ برونزيٌّ ثقيل، وهو موصَلٌ بعنايةٍ بتروسٍ وعتلات، يتأرجح هذا البندول البرونزيُّ الثقيل ليقيس حياتهم. ويدرك كلُّ شخصٍ بأنّه، فى وقت ما، يتوجَّب عليه أن يواجه الفترات غير المنضبطة من حياته، عليه أن يقدّم الطاعة لـ (الساعة العظمى). كلُّ رجُلٍ وامرأةٍ ينبغى أن يقوم برحلة الحجِّ إلى (معبد الزمان).

وهكذا، ففى كلِّ يومٍ، وفى كلِّ ساعةٍ من ساعات اليوم،

يمتدُّ صفٌّ من عشرةِ آلاف شخصٍ علي شكلِ نصفِ دائرةٍ فى وسط روما، صفُّ الحجاج الذين ينتظرون تقديم الولاء لـ (الساعة العظمى). يقفون بخشوع، وهم يتلون كتب الأدعية، ويحملون أطفالهم. يقفون بخشوع، ولكنَّهم سرا يغلون غضبا؛ لأنَّ عليهم أن يشاهدوا شيئا يُقاس، وكان ينبغى أن لا يُقاس. عليهم أن يشاهدوا المرور المضبوط للدقائق وللعقود من السنين. لقد وقعوا فى فخِّ رغبتهم فى الاختراع وجسارتهم. وعليهم أن يدفعوا ثمن ذلك من حياتهم.

٢٠ حزيران/ يونيو ١٩٠٥

في هذا العالَم، الزمان ظاهرةٌ محلّية. ساعتان حائطيّتان قريبة إحداهما من الأُخرى، تدقّان بنفس السرعة تقريبا؛ ولكنّ الساعات الحائطية التي تفصلها عن بعضها مسافةٌ ما، تدقّ بمعدّلاتٍ مختلفةٍ من السرعة؛ وكلّما ازداد البُعد، تصاعدت السرعة. وما يصدُق على الساعات الحائطية، يصدُق كذلك على معدّلِ سرعةِ دقّاتِ القلب، وعلى سرعةِ الشهيق والزفير، وحركةِ الريح في العشب الطويل. ففي هذا العالم ينساب الزمان بسرعةٍ مختلفة في المواضع المختلفة.

ولأنّ التجارة تتطلّب وحدةً زمنيةً واحدةً، فإنّه لا توجد تجارةٌ بين المُدُن. الفواصل بين المُدُن كبيرةٌ أكثر من اللازم. فإذا كان الوقت المطلوب لعدّ ألف فرنك سويسريّ من العملة النقدية هو عشر دقائق في بيرن، وساعةً كاملةً في زوريخ، كيف تستطيع هاتان المدينتان عقدَ صفقاتٍ تجاريةٍ بينهما؟ كلُّ مدينةٍ هي جزيرةٌ بذاتها. ويجب على كلِّ مدينة أن تزرع أشجار الخوخ والكرز الخاصّة بها، يجب على كلِّ مدينة تربية المواشي والخنازير الخاصّة بها، يجب على كلِّ مدينة بناء طواحينها الخاصّة بها. يجب على كلِّ مدينة أن تعيش مستقلةً بذاتها.

في مناسبةٍ ما، سيغامر رحّالة بالسفر من مدينته إلى أُخرى. فهل ستصيبه الحيرة؟ ما كان يستغرق ثوانٍ في بيرن، قد يأخذ ساعاتٍ في فرايبورغ، أو أياما في لوتسرن. وفي الوقت الذي يستغرقه سقوط ورقةٍ من شجرةٍ في مكانٍ ما، يمكن أن تتفتح خلاله زهرةٌ في مكانٍ آخر. وفي الوقت الذي يستغرقه دويّ الرعد في مكانٍ ما، يمكن أن يتمّ ارتباط شخصيْن بعلاقة غرامية في مكان آخر. وفي نفس الوقت اللازم ليكبر فيه ولدٌ ويصبح رجلا، قد تنزلق قطرة مطر من على زجاج النافذة. ومع ذلك، فإنّ المسافر لا يدرك هذه التفاوتات والاختلافات، ففيما يتحرّك

من مشهدٍ زمانىّ إلى آخر، فإنّ جسمه يتكيّف لحركة الزمان المحلّية؛ إذْ كيف يستطيع المسافر أن يدرك أنّه انتقل إلى منطقةٍ زمانيةٍ جديدة، إذا كان الانسجام سائدا فى كلّ دقّةِ قلب، وكلّ تأرجحِ بندول، وكلّ انبساطِ جناحيْن لدى طائر الغاق؟ إذا كانت سرعة العواطف الإنسانية نفسها تبقى متناسبةً مع سرعةِ حركةِ الأمواج فى بركة، كيف يستطيع المسافر أن يعرف أنّ شيئا ما قد تغيّر؟

لا يعرف المسافر أنّه دخل منطقةً زمانيةً جديدة، إلا إذا اتصل هاتفيا بالمدينة التى غادرها؛ آنذاك سيعلم أنّه فيما كان مسافرا، ازدهرت مبيعاتُ دكانِ الملابس الذى يملكه بصورةٍ كبيرةٍ وتنوّعت بضاعته، أو أنّ ابنته عاشت حياتها وأصبحت كبيرة، أو ربّما يعلم أنّ زوجة جاره قد أتمّتِ الأغنية التى كانت تغنّيها عندما غادر بوابة منزله الأمامية. حينذاك سيدرك المسافر أنّه منقطعٌ فى الزمان، وفى الفضاء كذلك. ولا يؤوبُ أىُّ مسافرٍ إلى مدينته الأصلية.

يُسَرُّ بعض الناس بالعزلة. ويجادلون قائلين إنّ مدينتهم هى أعظم المدائن، فلماذا يريدون التشارك والتبادل مع المُدُن الأخرى؟ أىُّ حريرٍ أنْعمُ من حريرِ مصانعهم؟ وأيّةُ أبقارٍ أقوى من أبقارِ مراعيهم؟ وأيّةُ ساعاتٍ يدويةٍ أَدَقُّ من ساعات محلاتهم التجاريّة؟ مثل هؤلاء الناس يقفونَ فى شرفاتهم عند الصباح والشمس تبزغ على الجبال، ولن ينظروا أبدا إلى ما وراء حدود بلدتهم.

آخرون يريدون التواصل. فيوجِّهون سيلا لا ينتهى من الأسئلة إلى الرحّالة النادر الذى يتجوّل فى مدينتهم، يسألونه فيها عن الأماكن التى مرَّ بها، يسألونه عن لونِ شروقِ الشمس فى الأماكن الأخرى، عن طول الناس والحيوانات، اللغات المنطوقة، عادات المجاملة والغزل، الاختراعات. وفى الوقت المناسب، ينطلق أحد الذين يغلب عليهم حبُّ الاستطلاع فى رحلةٍ ليرى بنفسه،

يغادر مدينته، يستكشف المدن الأخرى، يصبح رحّالةً. ولن يعود أبدا.

هذا العالَم ذو المَحلِّية فى الزمان، هذا العالم ذو العزلة، يؤدّى إلى تنوُّعٍ ثرىٍّ فى الحياة؛ لأنّه بدون اختلاط المُدُن، يتسنّى للحياة أن تتطوَّر بألفِ طريقةٍ مختلفة؛ ففى إحدى المُدُن، قد يعيش الناس قريبين بعضهم من بعض، وفى مدينة أُخرى قد يعيشون متباعدين. فى مدينةٍ ما، قد يرتدى الناس ملابسَ متواضعة، وفى أُخرى، قد لا يلبسون أيّةَ ثيابٍ على الإطلاق. فى مدينةٍ ما، قد يحزن الناس لموت الأعداء، وفى أُخرى، قد لا يوجد لديهم أصدقاء ولا أعداء. فى مدينة ما، قد يمشى الناس على الأقدام، وفى أُخرى، قد يركبون عرباتٍ غريبةَ الاختراع. مثل هذا التنوُّع وأكثر، يوجد فى مناطقَ لا يبعد بعضها عن بعض سوى مائة كيلومتر. خلف الجبال فقط، أو وراء النهر فقط، ثمّةَ حياةٌ مختلفة. ومع ذلك، فهذه الحيوات لا يتحدّث بعضها مع البعض. هذه الحيوات لا تَشارُك فيها. هذه الحيوات لا يُغنى بعضها بعضا؛ فالغنى الذى تسبِّبه العزلة تجهضه العزلة ذاتها.

٢٢ حزيران/ يونيو ١٩٠٥

إنّه يوم التخرُّج فى ثانوية أغاسيز. مائة وتسعة وعشرون طالبا يرتدون قمصانا بيضاء، وأربطةَ عنقٍ بنِّيَّة اللون، ويقفون على درجات مرمريَّة، وهم يتململون تحت الشمس، فيما يتلو مدير المدرسة أسماءَهم. وفى الساحة العشبية الأمامية، يستمع آباؤهم وأقاربهم بدون حماسة، وهم يحدِّقون إلى الأرض، أو يغلبهم النعاس فى كراسيِّهم. يلقى الخرّيج الأوّل فى دفعته بالمدرسة خطابه برتابة. يبتسم ابتسامةً شاحبةً عندما يستلم ميداليّته، ويرميها فى شجيرة بعد الاحتفال. لا أحد يقدّم له التهانى. الأولاد، وأمهاتهم، وآباؤهم، وأخواتهم، يمشون بتكاسل إلى بيوتهم فى شارع أمثاو وشارع الآر، أو إلى مصاطب الانتظار قربَ ساحة المحطة، يجلسون بعد وجبة الغداء، يلعبون الورق لتمضية الوقت، ويغفون. يطوون ملابسهم الرسمية ويضعونها جانبا لمناسبة أُخرى. وفى آخر الصيف، يذهب بعض أولئك الأولاد إلى الجامعة فى بيرن أو فى زوريخ، ويعمل بعضهم فى محلات آبائهم التجارية، ويسافر بعضهم إلى ألمانيا أو فرنسا بحثا عن عمل. وتجرى هذه التحرُّكات بلا مبالاة، وبصورة آلية، مثل تأرجح البندول جيئةً وذهابا، مثل لعبة الشطرنج التى تكون فيها كلُّ حركةٍ محتومة. لأنَّ فى هذا العالم، يكون المستقبل ثابتا.

فى هذا العالم، الزمان ليس مرنا، ولا متحرِّكا ليفسح المجال لوقوع الحوادث. بدلا من ذلك، فإنَّ الزمان متصلِّبٌ، هيكلٌ عظميٌ، ممتدٌّ بلا نهايةٍ إلى الأمام وإلى الخلف، متحجرٌ فى المستقبل كما فى الماضى. فكلُّ فعلٍ، وكلُّ فكرةٍ، وكلُّ نسمةِ ريح، وكلُّ تحليقةِ طير، محتَّمةٌ تماما، إلى الأبد.

فى قاعة التمثيل فى المسرح الوطنى، تتحرّك راقصةُ باليه على طول المسرح، وترقص مرتفعةً فى الهواء، تبقى معلَّقة

فى الهواء لحظة، ثمّ تحطّ على الأرض؛ إلى الأعلى، إلى الأسفل، إلى الأعلى، تجمع الساقين، تفردهما، تحرّك الذراعين مثل قوسٍ مفتوح الآن، تستعدُّ لحركةِ دورانٍ على قدمٍ واحدة، فى حين تتحرّك الساق اليمنى من الخلف إلى الموضع الرابع، وهى تدفع بقدم واحدة، والذراعان يتحرّكان نحو الداخل لتسريع الدوران. إنّها الدقّة بعينها. إنّها ساعة حائط. فى ذهنها، وفيما هى ترقص، تفكّر فى أنه كان عليها أن تحلّق قليلا فى قفزةٍ واحدة، ولكنّها لا تستطيع أن تحلّق، لأنّ حركاتها ليست ملكا لها. فكلُّ تفاعلٍ بين جسمها والأرض أو الفضاء، مقرَّرٌ مسبقا لدرجة الواحد فى البليون من البوصة. لا مجال للتحليق. فالتحليق يتضمّن شكّا وعدمَ اطمئنانٍ خفيف، حيث لا يوجد شكٌّ ولا عدم اطمئنان. وهكذا فهى تتحرّك على المسرح بحتميّة مضبوطة ضبط الساعة، ولهذا فإنّها لا تقوم بقفزةٍ أو بحركةٍ جريئة غير متوقعة. فهى تحطُّ على الأرض بصورة مضبوطة ولا تحلم بهبوطٍ على رِجلٍ واحدة، لم يُخطَّط له من قبل.

فى عالمٍ ذى مستقبلٍ ثابت، تكون الحياة مثل رواق من الغرف لا نهاية له. وكلُّ غرفةٍ تُضاء فى كلّ لحظة، والغرفة المجاورة مظلمة ولكنّها تتهيأ للإضاءة. ونحن نسير من غرفة إلى أُخرى، وننظر فى الغرفة المضاءة، فى اللحظة الراهنة، ثمّ نواصل السير. ولا نعرف الغرف التى ما زالت أمامنا، ولكنّنا نعرف أنّنا لا نستطيع تغييرها. فنحن مشاهدو حياتنا فقط.

يسير الصيدلىُّ الذى يعمل فى الصيدلية الكائنة فى شارع كوشر، فى ثنايا المدينة أثناء استراحة العصر. يتوقّف عند الحانوت الذى يبيع الساعات الحائطية فى السوق، يشترى سندويشا من المخبز المجاور، يواصل سيره إلى الغابة والنهر. وهو مدينٌ لصديقه ببعض المال، ولكنّه يفضّل أن يشترى الهدايا لنفسه. وفيما هو سائرٌ وكلُّه إعجابٌ بسترته الجديدة، يقرِّر أنّ فى وسعه تسديد دينه لصديقة فى العام القادم، أو ربما

لا يسدِّد الدِّين أبدا، على الإطلاق. ومن ذا الذى يستطيع أن يلومه؟ ففى عالمٍ ذى مستقبل ثابت، لا يمكن أن يوجد صواب أو خطأ. فالصوابُ والخطأ يتطلّبان حرية الاختيار، ولكن إذا كان كلُّ فعل قد تمَّ اختياره سلفا، لا يمكن أن توجد حرّية الاختيار. فى عالمٍ ذى مستقبل ثابت، لا أحد مسؤول. فالغرف قد جرىَ ترتيبها مسبقا. والصيدلىُّ يتأمَّل جميع هذه الأفكار وهو يسير فى الممرِّ الذى يخترق (برونناشلدة)، ويتنفَّس هواء الغابة الرطب. ويكاد يسمح لنفسه بابتسامة، فهو مسرور لاتِّخاذه قراره. يتنفَّس الهواء الرطب، ويشعر بغرابةٍ بأنَّه حرٌّ يفعل ما يحلو له، حرٌّ فى عالم بلا حرِّيّة.

٢٥ حزيران/ يونيو ١٩٠٥

عصر يوم الأحد. الناس يتنزّهون فى شارع الآر، وهم يرتدون ملابسَ يومِ الأحد، وقد امتلأت بطونهم بغداءِ يوم الأحد، ويتحدَّثون بصوتٍ خفيضٍ بجانب خرير النهر. الحوانيت مغلقة. ثلاثُ نسوةٍ يتمشَّين فى السوق، يتوقَّفن لقراءة الإعلانات، يتوقّفن ليتطلَّعن إلى واجهات المحلات، ويسِرن بهدوء. صاحبُ نُزُلٍ يمسح درجاته، يجلس ويقرأ فى جريدة، يتّكئ على الحائط الحجرى، ويغمض عينيْه. الشوارع نائمة. الشوارع نائمة، وتطفو فى الجوِّ أنغامٌ موسيقيةٌ منسابةٌ من آلةِ كمان.

فى وسط غرفةٍ فيها كُتبٌ على طاولات، يقف شابٌّ يعزف على كمانه. إنَّه يعشق كمانه. ويعزف ألحانا رقيقة. وفيما هو يعزف، يُلقى نظرةً على الشارع تحته، ويلحظ زوجيْن قريبيْن من بعضهما، ينظر إليهما بعينيْه السوداويْن، ثمَّ يُشيح بنظره بعيدا. يقف ساكنا تماما. موسيقاه هى الحركة الوحيدة، موسيقاه تملأ الغرفة. يقف ساكنا تماما، ويفكّر فى زوجته وابنه الرضيع فى الغرفة السفلى.

وفيما هو يعزف، يقف رجلٌ آخر، مماثلٌ له، فى وسط غرفةٍ ويعزف على كمانه. يُلقى الرجل الآخر نظرةً على الشارع تحته، ويلحظ زوجيْن قريبيْن من بعضهما، ثمَّ يحوّل نظره بعيدا. وفيما هو يعزف، يقف رجلٌ ثالثٌ ويعزف على كمانه. فى الحقيقة يوجد رجل رابع وخامس، فهناك عددٌ لا متناهٍ من الشباب الواقفين فى وسط غرفهم وهم يعزفون على آلات الكمان. ثمّة عددٌ لا متناهٍ من الألحان والأفكار. وهذه الساعة الواحدة التى يعزف فى أثنائها هؤلاء الشباب على آلاتهم، ليست هى الساعة الوحيدة، بل هنالك ساعات عديدة؛ فالزمان مثل ضوءٍ بين مرآتيْن. الزمان يثب جيئة وذهابا، مُنتِجا عددا لا متناهٍ من الصور، والألحان، والأفكار. إنُّه عالَمٌ من النُسخ التى لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

وفيما الرجل الأوّل يفكّر، فإنّه يُحِسُّ بالرجال الآخرين. إنّه يُحسُّ بموسيقاهم وبأفكارهم. يُحسُّ بأنّ نفسه قد تكرّرت ألف مرّة، يحسُّ بأنّ غرفته وكُتبه مكرّرة ألف مرّة، يحسُّ بأنّ أفكاره مكرّرة. أيُّ تكرار هذا الذى يخصّه؟ وما هى هُويّته الحقيقية ونفسه المستقبلية؟ أَينبغى أن يهجر زوجته؟ ماذا عن تلك اللحظة فى مكتبة الجامعة التكنولوجية عندما نظرت إليه عبر المنضدة؟ ماذا عن شعرها الأسود الكث؟ أية سعادة منحته غير هذه الساعة التى يعزف فيها على كمانه؟ تثب أفكاره جيئةً وذهابا ألف مرّة بين كلّ نسخةٍ ونسخةٍ من نفسه، يأخذ فى الضُّعف مع كلّ وثبة. وتأخذ أفكاره فى التضاؤل حتّى لم يعُد يتذكّر الأسئلة أو سببها. أيّة عزلة؟ ينظر إلى الشارع الفارغ ويعزف. تنساب موسيقاه وتملأ الغرفة، وعندما تمرّ الساعة التى هى ساعاتٌ لا تُحصى، يتذكّر الموسيقى فقط.

٢٧ حزيران/ يونيو ١٩٠٥

كلّ يومِ ثلاثاء، يجلب رجلٌ فى منتصف العمر، أحجارا من المقلع الكائن شرقى مدينة بيرن، إلى مبنًى فى شارع هودلر. هذا الرجل عنده زوجة، وله ولدان كبرا وغادرا المنزل، وله أخٌ مسلول يعيش فى برلين. يرتدى سترةً صوفيةً بنّيّةَ اللون فى جميع الفصول، ويعمل فى مقلع الأحجار حتّى بعدما يحلّ الظلام، يتناول عشاءه مع زوجته ويأوى إلى فراشه، ويعتنى بحديقته فى أيام الآحاد. وفى أيام الثلاثاء فى الصباح، يحمّل شاحنته بالأحجار ويأتى بها إلى المدينة.

وعندما يأتى، يتوقّف فى السوق ليشترى الطحين والسكّر. يُمضى نصف ساعةٍ جالسا بهدوء فى مقعد خلفى فى مقصورة كاتدرائية القديس فانسان. يتوقّف عند مكتب البريد ليبعث برسالةٍ إلى برلين. وعندما يمرّ بالناس فى الشارع، فإنّه لا يرفع عينيْه من الأرض. بعض الناس يعرفونه، فيحاولون استرعاء بصره، لإلقاء التحيّة عليه. يتمتم ويواصل سيره. وحتّى عندما يُسلّم أحجاره فى شارع هودلر، فإنّه لا يستطيع أن ينظر إلى عينَىّ البنّاء. وبدلا من ذلك، يحوّل نظره جانبا، ويتكلّم إلى الحائط عندما يجيب على أسئلة البناء الودّية، ويقف فى زاويةٍ عندما توزن أحجاره.

قبل أربعين عاما فى المدرسة، بعد الظهر فى شهر آذار/ مارس، تبوّل فى الصفّ. لم يستطِع أن يحكم بوله؛ فحاول بعد ذلك أن يبقى فى كرسيّه، ولكنّ الأولاد الآخرين شاهدوا بقعة البول، وجعلوه يدور فى الغرفة ويدور ويدور. وراحوا يُشيرون إلى البقعة المبتلّة فى سرواله، ويولولون. فى ذلك اليوم، بدت أشعة الشمس مثل جداول من حليب، عندما تسربت من خلال الشبابيك، وألقت بخيوطها البيضاء على أرضية الغرفة. اثنتا عشرة سترةً كانت معلّقة على المشاجب بجانب الباب.

وعلامات الطباشير ممتدةٌ على طول السبورة، أسماء عواصم أوروبا. وكان للمناضد غطاءٌ خشبىٌّ متحرّكٌ وجارورات؛ وقد حُفِر على غطاء منضدته فى أعلى اليمين اسمه: «جوهان». وكان الهواءُ رطبا وقريبا من بخار الغليونات. ساعةُ حائطٍ لها عقاربُ حمراءُ كبيرةٌ تشير إلى الساعة الثانية والربع، وكان الأطفال يطلقون عليه صيحات الاستهزاء فيما كانوا يطاردونه حول الغرفة، والبقعة المبتلّة فى سرواله. كانوا يصيحون مستهزئين وينعتونه بـ «طفل المثانة، طفل المثانة، طفل المثانة».

تلك الذكرى صارت حياته، فعندما يستيقظ فى الصباح، فإنّه الولد الذى يتبوّل فى سرواله. وعندما يمرّ بالناس فى الشارع، فإنّه يعلم أنّهم يرون البقعة المبتلة فى سرواله. ينظر إلى سرواله ثمّ يشيح ببصره. وعندما يزوره ولداه، فإنّه يبقى فى غرفته، ويتكلّم معهم من وراء الباب. فهو الولد الذى لم يستطِع أن يحكم بوله.

ولكن ما هو الماضى؟ ألا يمكن أن تكون قوّة الماضى مجرّد وهْم؟ ألا يمكن أن يكون الماضى مِشكالا زجاجيّا يعكس أنماطا من الصور التى تتغيّر عند كلّ هبّة ريح مفاجئة، أو ضحكة، أو فكرة؟ وإذا كان التغيُّر فى كلّ مكان، أنّى لنا أن نعرف ذلك؟

فى عالمٍ ذى ماضٍ متغيِّر، يستيقظ رجل المقلع ذات صباح، وهو ليس ذلك الولد الذى لم يستطِع أن يحكم بوله. فتلك الأمسية من آذار/ مارس التى مضى عليها زمنٌ طويل، هى مجرّد أُمسية أُخرى. فى تلك الأمسية المنسيّة، جلس فى الصفّ، أخذ يقرأ عندما ناداه المعلّم، وذهب للتزلّج مع الأولاد الآخرين بعد المدرسة. الآن يمتلك مقلع أحجار. يمتلك تسعة أطقم من الملابس. يشترى خزفا بديعا لزوجته، ويتمشّى معها كثيرا فى أمسيات أيام الآحاد. يزور أصدقاءه فى شارع أمثاو وشارع الآر، يبتسم لهم، ويصافحهم. يرعى حفلاتٍ موسيقيّةً فى الكازينو.

ذات صباح يستيقظ و...

تُشرق الشمس على المدينة، يتثاءب عشرة آلاف شخص، ويتناولون الخبز المحمَّص والقهوة. عشرة آلاف شخص يملأون أروقة شارع كرام أو يذهبون إلى العمل فى شارع شبايش أو يصطحبون أطفالهم إلى المنتزه. لكلٍّ واحد ذكرياته: والدٌ لا يستطيع أن يحبّ طفله، أخٌ يفوز دائما، عاشقٌ ذو قبلة لذيذة، لحظةُ غشٍّ فى امتحانٍ مدرسىٍّ، سكونٌ يرين بعد تساقط الثلوج، نشرُ قصيدة. فى عالمٍ ذى ماضٍ متغيّر، هذه الذكريات مثل حنطةٍ تذروها الرياح، مثل أحلامٍ متلاشية، مثل أشكالٍ فى غيوم متحرِّكة. عندما تقع الأحداث، تفقد واقعيّتها، تتغيّر بلمحة، بعاصفة، بليْلة. وبمرور الوقت، يكون الماضى كأن لم يكُن. ولكن مَن يستطيع أن يعلم؟ مَن يستطيع أن يعلم أنَّ الماضى ليس صلبا مثل هذه اللحظة، عندما تنساب أشعة الشمس فوق جبال الألب البرنيز، ويلوّح أصحاب الدكاكين بأيديهم، وهم يرفعون مظلاتِ دكاكينهم، ويبدأ رجل المقلع بتحميل شاحنته.

٢٨ حزيران/ يونيو ١٩٠٥

تقول الجدَّة لابنها وهى تربتُ على كتفه: «كفاك أكلا بشراهة، فأنتَ ستموت قبلى، ومَن الذى سيعتنى بفضيّاتى».
العائلة فى نزهةٍ على ضفاف نهر الآره، على بُعد عشرة كيلومترات جنوبى مدينة بيرن. البنتان فرغتا من تناول غدائهما، وتجريان الواحدة خلف الأخرى حول شجرة صنوبر. وأخيرا تشعران بالدوار، تسقطان على العشب الكثيف، تتمددان بسكون للحظة، ثمَّ تقفان على الأرض، تشعران بالدوار مرَّةً أُخرى. الابن وزوجته السمينة جدًا والجدّة يجلسون على بطّانية، ويأكلون لحم الخنزير المدخَّن، والجبن، والخبز، مع الخردل، والعنب، وكعكة شوكلاتة. وفيما هم يأكلون ويشربون، يهبُّ نسيمٌ عليلٌ على النهر، فيستنشقون هواء الصيف الحلو. يخلع الابن حذاءه، ويحرِّك أصابع قدمَيْه فى العشب.

فجأةً، يحلِّق سربٌ من الطيور فوقهم. يقفز الشابُّ من على البطانية، ويجرى خلف الطيور، دون أن يضيّع الوقت للبس حذاءه. يختفى خلف التلِّ. سرعان ما يلتحق به آخرون ممَّن رأوا الطيور من المدينة.

يحطُّ أحد الطيور على شجرة. تتسلَّق امرأةٌ جذع الشجرة وتمدُّ يدها لتمسك بالطير، ولكنَّ الطير ينطُّ بسرعة إلى غصنٍ أعلى. فتتسلَّق المرأة إلى الأعلى، وبحذرٍ، تتعلَّق بغصنٍ، وتزحف إلى الطير. يقفز الطير عائدا إلى الغصن السفلىّ. وفيما تتعلَّق المرأة بالشجرة، وهى لا حيلةَ لها، يحطُّ طيرٌ آخر على الأرض ليلتقط الحَبَّ. يتسلَّل خلفه رجلان، وهما يحملان ناقوسا زجاجيا ضخما لوضعه عليه. ولكنَّ الطير أسرع منهما بكثير، فيحلّق فى الهواء ملتحقا بالسرب.

الآن تحلِّق الطيور فوق البلدة. يقف راعى كاتدرائية القديس فانسان على برج ناقوس الكنيسة، محاولا أن يستدرج الطيور

إلى داخل الشبّاك المقوّس. امرأةٌ عجوز فى حدائق كلاين شانزة ترى الطيور وهى تأوى بسرعةٍ إلى شجيرة. تسير نحوها ببطءٍ وهى تحمل ناقوسا زجاجيا. وعندما تُدرِك أنّها لا أمل لها فى اصطياد طير، تلقى بناقوسها على الأرض وتشرع في البكاء.

ليس الإحباط من نصيبها فقط. فى الحقيقة، كلُّ رجل، وكلُّ امرأة، يرغب فى الحصول على طير. لأنّ هذا السرب من العنادل هو الزمان. فالزمان يرفرف ويتململ وينطُّ مع هذه الطيور. اصطد واحدا من هذه العنادل تحت الناقوس الزجاجى، وسيتوقّف الزمان. تجمد اللحظة لجميع الناس والأشجار والتربة، وستحاصَر.

فى الحقيقة، نادرا ما تُصاد هذه الطيور. الأطفال الذين هم وحدهم يمتلكون السرعة اللازمة للإمساك بالطيور، ليست لهم رغبةٌ فى إيقاف الزمان؛ فالزمان يتحرّك ببطء كبير بالنسبة إلى الأطفال. فهم يجرون من لحظةٍ إلى لحظة، متلهّفين لمناسبات عيد الميلاد والسنين الجديدة، وبالكاد يستطيعون الانتظار لبقية حياتهم. الكبار هم الذين يرغبون فى إيقاف الزمان بطريقةٍ يائسة، ولكنّهم بطيئون ومتعبون أكثر من اللازم لاصطياد أىّ طير. بالنسبة إلى الكبار، يمرّ بهم الزمان مثل السهم بسرعةٍ فائقةٍ جدا. إنّهم يتوقون لاصطياد لحظةٍ واحدة على مائدة الإفطار وهم يشربون الشاى، أو لحظةٍ واحدةٍ عندما تجد الحفيدة الصغيرة صعوبةً فى خلع ملابسها، أو وقت العصر عندما تنعكس فيه شمس الشتاء على الثلج وتُغرِق غرفة الموسيقى بالضياء. ولكنّهم بطيئون أكثر مما يجب. عليهم أن يراقبوا الزمان ينطُّ ويطير بعيدا عن متناول أيديهم.

فى تلك المناسبات، عندما يُصاد عندليب، يُسعَد الذين يمسكون باللحظة المتجمِّدة الآن. إنّهم يتذوّقون حلاوةَ تجمُّع العائلة والأصدقاء، وتعبيرات الوجه، والفرحة المُقتنصَة لدى الحصول على جائزةٍ أو ولادة طفل أو علاقة غرامية، أو تنسُّم

رائحة القرفة أو رؤية زهرة بنفسج بيضاء. يسعَد مَن يمُسكون بتلك اللحظة المتجمِّدة، ولكنَّهم سرعان ما يكتشفون أنَّ العندليب يغيب، وتتلاشى أُغنيته الصافية الشبيهة بعزف الناى وتخفت حتى تصمت، وأنَّ اللحظة المقتنصة تذبل وتمسى بلا حياة.

خاتمة

يدقُّ برج الساعة ثمانى مرّات مِن بعيد. يرفع الموظّف الشابُّ الذى يعمل فى دائرةِ براءات الاختراع، رأسَه من المكتب، يقف منتصبا، يتمطّى، ويمشى إلى الشبّاك.

فى الخارج، البلدة مستيقظة. تتجادل امرأةٌ مع زوجها وهى تسلّمُه طعام غدائه. مجموعةٌ من الأولاد فى طريقهم إلى المدرسة الثانوية فى شارع زوغهاوس، وهم يرمون كرة القدم إلى الخلف وإلى الأمام، ويتكلّمون فرحين عن العطلة الصيفية. امرأتان تمشيان بسرعةٍ نحو السوق وهما تحملان أكياس تسوُّق فارغة.

بعد قليل، يدخل موظّفٌ سامٍ يعمل فى دائرة براءات الاختراع من الباب، ويذهب إلى مكتبه ويأخذ فى العمل، دون أن ينطق بكلمة. يلتفتُ أينشتاين وينظر إلى ساعة الحائط فى الزاوية. الساعة الثامنة وثلاث دقائق. يحرّك بتململٍ قطعَ النقود المعدنيّة فى جيبه.

فى الساعة الثامنة وأربع دقائق، تدخل كاتبةُ الطابعة. ترى أينشتاين فى الغرفة وهو يحمل مخطوطته المكتوبة باليد، فتبتسم. سبق لها أن طبعت له العديد من أوراقه الشخصية فى أوقات فراغها، وكان يدفع لها برضًى الثمن الذى تطلب. وهو هادئ، مع أنّه يروى النكات أحيانا. ولهذا فهى تحبّه.

يعطيها أينشتاين مخطوطته، نظريته عن الزمان. الساعة الثامنة وست دقائق. يمشى إلى مكتبه. يلقى نظرة على ركام الملفات. يذهب إلى رفّ الكتب، ويبدأ بإزالة أحد الدفاتر. يستدير ويمشى عائدا إلى الشباك. الهواء رائقٌ بصورةٍ غير معتادة فى أواخر شهر حزيران/ يونيو. ومن فوق بناية، فى وسعه أن يرى أطراف جبال الألب، وهى زرقاء وقممها بيضاء. وإلى الأعلى، تبدو بقعةٌ سوداءُ صغيرةٌ هى طير يقوم بدوراتٍ بطيئةٍ فى السماء.

يمشى أينشتاين راجعا إلى مكتبه، يجلس لحظةً، ثمَّ يعود إلى الشبّاك. يشعر بالفراغ فى نفسه، لا رغبة له فى مراجعة براءات الاختراع، ولا فى الحديث مع بيسو، ولا فى التفكير فى الفيزياء. يشعر بالفراغ فى نفسه، ويحدّق بلا اهتمام فى البقعة السوداء الصغيرة وفى جبال الألب.

قائمة المحتويات

المؤلف آلن لايتمان

المُترجم: على القاسمى